الجمعية الشرعية الرئيسية

لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية

هيئة العلماء

من حصاد الفكر الدعوى

حقوق الإنسان في شريعة الإسلام

بقلم

الأستاذ الدكتور

محمد المختار محمد المهدي

الرئيس العام للجمعيات الشرعية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية



الجمعية الشرعية الرئيسية
لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية
عضو المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة
هيئة العلماء

من حصاد الفكر الدعوي

حقوق الإنسان في شريعة الإسلام

بقلم
الأستاذ الدكتور
محمد المختار محمد المهدي
الرئيس العام للجمعيات الشرعية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله .. خلق الإنسان وكرمه ، وجعله خليفة في الأرض وفضله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أنقذ الإنسان من براثن الضعة والذلة للطغاة الظالمين ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، ومن سار على دربهم إلى يوم الدين .

أما بعد ..

فإن الدين ضرورة من ضرورات الإنسانية الرشيدة ، لا تغني عنه فكرة عقلية ، ولا تنظيم وضعي ، والإسلام على وجه الخصوص دين تتضافر تشريعاته وتتكامل لتكوّن الشخصية الإنسانية الفاضلة التي تتمتع بكافة الحقوق وتقوم بما عليها من واجبات ، إنه **عقيدة** تتسق مع العقل والفطرة ، و**شريعة** تحقق

المصالح والمنافع وتربي الفرد الإيجابي الذي يسهم فـي إسـعاد الإنسان ، وتوجيه الحياة نحو الصراط المستقيم ، إنه سلام للخلق وأمن للعالم ، إنه دين الحق الذي تشـهد بـه الفطـر السـليمة ، وتطمئن إليه النفوس الطاهرة ، وتطيب به الحيـاة المسـتقيمة ، وتؤمن به العقول الراجحة ، *قال تعالى* : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[1] .

فإلى الإسلام في عقيدته وشريعته ، في عباداته ومعاملاته ، في نظمه وأخلاقه ، في حقوق الإنسان كاملة تامة .. فلعل قلوبًـا تتفتح للهدى والنور فتستمع إلى دعوة الإسلام الحقة ، إذ لا طريق

---

(١) سورة النساء – الآيتان ١٧٤ ، ١٧٥ .

لخلاص البشرية مما تتخبط فيه من ظلمـــات ســوى الإســلام ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

الأستاذ الدكتور
محمد المختار محمد المهدي
الأستاذ بجامعة الأزهر

---

(١) سورة الأنعام – الآية ١٥٣ .



بين يدي البحث

مضى تسعة وخمسون عامًا على إعلان هيئة الأمم المتحدة حقوق الإنسان ، ويوم أن أعلنت ، استبشر المظلومون والمقهورون بأن يكون هذا الإعلان بداية لنشر العدل والحرية والمساواة ، وقَوِيَ الأمل لدى الشعوب المغلوبة أن تحصل على حريتها واستقلالها ، إذ طالما عللوا أنفسهم وعلقوا أمانيهم على الجهود المرتقبة لتعاون الأقوياء على إنصاف الضعفاء حتى يتحقق للجنس البشري ما يصبو إليه من أمن وسعادة ورخاء وازدهار .

غير أن هذا الميثاق – وقد مرت عليه هذه الأعوام – لم يحقق لهؤلاء المطحونين شيئًا من آمالهم ، وظل حبرًا على ورق بالنسبة للشرق الإسلامي على وجه الخصوص ، بل إنه كان سيفًا مسلطًا على رقابهم لتغيير قيمهم ومبادئهم ، وفرض أنماط الغرب ونظمه على شعوبهم ، بل وساعد الصهاينة على إبتلاع أرضهم وانتهاك حرماتهم ومقدساتهم وسفك دمائهم .

ومن هنا كان على العالم الإسلامي وقد منحه الله تعالى بالإسلام منهجًا كاملاً ، ونظامًا شاملاً ، وتشريعًا متكاملاً تتعاون روافده كلها على تكوين الشخصية الإنسانية المثالية ، وعلى صنع المجتمع الفاضل ، وعلى إقامة معالم الحق والعدالة والحرية والمساواة في فجاج الأرض وبين جنبات الحياة .

كان عليه بهذه الميزة الفريدة وذلك التراث الخالد أن يبرز هذه الحقوق ، وأن ينقذ كرامة الإنسان ، فهو الذي طبق هذه المبادئ ، وأظهر للتاريخ البشري النماذج العملية العالية ، والقدوة الطيبة الصالحة في شتى ميادين الفضيلة والأخلاق .

وقبل أن نخوض في غمار البحث ، نحب أن نضع بين يدي القارئ الكريم ، حقيقتين هامتين تزيلان كثيرًا من اللبس والغموض ، وتمحوان ما قد يتبدى أمامه من تساؤلات وشكوك .

الحقيقة الأولى : أن الإسلام – وهو الدين الخالد العام الشامل الذي يقول عنه رب العزة : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾[1] –

---

(١) سورة آل عمران – جزء من الآية ١٩ .

يَعتبِر جندَه وأتباعه مسئولين عن مهمة تبليغ نوره إلى جميع أفراد الجنس البشريِ حتى لا يكون لأحد حجة علـــى الله تعـــالى عنـــد الحساب ، ولأنه نور وهدى ورحمة .. فمن حق كـــل إنســـان أن يرى هذا النور .. ثم هو بعد ذلك مسئول عن نفسه في اختيار ما يحب ، إما بالسير على هداه أو بإغماض العين عن نوره وسناه ، ولكنه حين يغمض عينه ويتنكب طريقه ليس له أن يصـــد غيـــره عن هذا النور ، وليس له أن يضع حاجزًا بينه وبين وصوله إلى الآخرين .. عليه أن يختار لنفسه فقط ، فلكل الناس عقول ، وهم أحرار كما كان حرًّا في النظر إليه واختيار ما راق لـــه حســـب تقديره ، دون سلطة خارجة عن أقطار نفسه ، ودوافع طبعه ، فإذا ما وضع عقبة أو وقف حجر عثرة في طريق هذا النور ، مانعًـــا من وصوله إلى الآخرين ، كان متعديًا على حريـــاتهم ، وكـــان متسلطًا ظالمًا يجب تأديبه ، وتقليم أظافره حتى يســـلم للمجتمـــع الإنساني كله حق الحرية والاختيار ، وحتى ينزاح من أمامه كـــل مسيطر على العقول والأفكار .

من هنا انطلق موكب الإسلام يزحف إلى القلوب المتعطشة إلى سلْسلِه العذب ، ونميره الصافي ، المتطلعة إلى نوره الممتد وبلسمه الشافي ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، ومن هنا كان المجتمع الإنساني مقسمًا – في نظر الإسلام – إلى ما يأتي :

١ – المسلمون :

وهم الذين ارتبطوا بمنهج الإسلام ونظامه وعقيدته ينفذون مبادئه ويحرصون على نشرها في الآفاق .

٢ – غير المسلمين : وهم :

أ – إما مسالمون لا يقفون في طريق الدعوة ولا يمالئون خصومها ولا يضطهدون أهلها سواء كانوا **معاهدين** ، أم **ذميين** ، أم **مستأمنين** ، فهؤلاء لهم البر والوفاء والاحترام المتبادل ، ماداموا محافظين على هذا الود ، محترمين لهذا العهد ، قال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ

أن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[1]

ب – وإما **محاربون** شهروا السلاح في وجه الدعوة وصدوا عن دين الله تعالى ، ووقفوا أمام نور الإسلام حجابًا كثيفًا ، لا يسمحون لأشعته الهادية أن يتمتع بها عباد الله تعالى .. أو ظاهروا أعداءه وساعدوهم ، فليس لهؤلاء عند المسلمين غير المنابذة والدفاع عن حرية الإنسان في اختيار ما يشاء من عقيدة ونظام ، *قال تعالى* : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2] .

هذا هو المجتمع الإنساني في العرف الإسلامي .. وقد وجه إليهم جميعًا رب العزة خطابه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ

---

(١) سورة الممتحنة – الآية ٨ .
(٢) سورة الممتحنة – الآية ٩ .

ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[١] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[٢] ، ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[٣] .

هذه النداءات الربانية وأمثالها في القرآن الكريم تخاطب في الإنسان جميع أفراده أن ينضموا إلى رحاب الحق ، وإلى الإله الحق ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى .. وهذه النداءات لا لبس فيها ولا غموض ، فهي موجهة إلى الجميع بلا استثناء .

---

(١) سورة البقرة – الآية ٢١ .
(٢) سورة النساء – الآية ١ .
(٣) سورة طه – جزء من الآية ١٢٣ ، والآية ١٢٤ .

ملحظ هام :

بيد أن هناك نداءات وتوجيهات إلــى المســلمين خاصــة .. وسيأتي منها الكثير في الأدلة التي سنسوقها برهانًا على ضــمان الإسلام لحقوق الإنسان مــن أمثــال قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وقد يساور القارئ شك عندما يقرأ هــذه الأدلــة فــيظن أن الإسلام يخص بها صنفًا معينًا من بني الإنســان ، وهــم الــذين أسلموا وآمنوا بالله ، ويهمل هذه الحقوق بالنسبة إلى غير المسلم .

ولإزالة مثل هذه الشبهة سقنا هذه الحقيقة التي تبيّن أن لغيــر المسلم حقًا متكافئًا مع المسلم من التمتع بــالحقوق العامــة التــي تضمن الأمن والاستقرار له في شتى مناحي الحياة ، وتكفل لــه

---

(١) سورة المائدة – الآية ٨ .

العيش الكريم .

وبناء على ذلك يكون واضحًا أن كل ما يرد في هذا البحث من أدلة يتوهم منها أنها خاصة بالنسبة للمسلم .. منسحبة بطريق التبع على المسالمين من غير المسلمين .

الحقيقة الثانية: أن أدلة واستئناسات ستأتي في ثنايا هذا البحث مأخوذة من حوادث عملية طبقها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخلفاء الراشدين .. وقد يتبادر إلى ذهن القارئ أن القرآن الكريم والسنة المطهرة فقط هما المنبعان الوحيدان للبراهين .. غير أننا نلفت نظره إلى ذلك الحديث الصحيح الذي يرشدنا إلى الاقتداء بأعمال الخلفاء الراشدين من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث يقول صلى الله عليه وسلم : « **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْداً حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِى فَسَيَرَى اخْتِلاَفاً كَثِيراً فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِى وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ** »[١] .

---

(١) أخرجه أبو داود – كتاب السنة – باب في لزوم السنة – حديث رقم ٤٦٠٧ . =

وبهاتين الحقيقتين نستطيع أن نسير في هذا البحث عن حقوق الإنسان .. على أن ما قرره الإسلام منها فهو الأصل والمصدر ، إذ لا يستطيع أحد أن ينكر تأثر الغرب بثقافة الإسلام عن طريق الأندلس ، ثم عن طريق الصليبيين .. وما لم يقرره الإسلام فهو شعار زائف باطل لا يحتوي معنى للكرامة الإنسانية ، ذلك أن أحدًا من البشر لن يستطيع أن يجد سبيلاً إلى المفاضلة بين قانون وضعي وبين الإسلام ، إذ هو بذلك يضع رسالة السماء في مستوى نتاج العقل الإنساني ، مع ما بينهما من بون شاسع في الإحاطة والدقة والحكمة والمصلحة .. بحكم أن الأول صادر عن العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية ولا تند عنه شاردة لا في عالم الغيب ولا في عالم الشهادة ، لا في السر ولا في العلانية .. وأن الثاني صادر ممن يتأرجح فكره بين حين وآخر ، ويختلف ما يراه مصلحة في يومه ليصير مفسدة في غده ، وهذا من أدلة النقص في الإدراك البشري .

= وأخرجه الترمذي – كتاب العلم – باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع – حديث رقم ٢٨٩١ .



مكانة الإنسان في القرآن الكريم

من بين مخلوقات الله الكثيرة اختص القــرآن الكــريم هــذا الإنسان بقيمة خاصة ، ومكانة ممتازة .. فهــو المخلــوق الــذي تحــدث عنه الخالق جل علاه أنه قد خلقه بيديه ونفخ فيــه مــن روحه ، فاستحق بهذه النفخة العلوية ، وذلك السر الإلهي أن يكون أكرم مخلوق ، وأن يأمر الله تعالى ملائكته المطهرين أن يسجدوا له : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1] .

ومنحه من العلم والمعرفة ما تفوق به على الملائكة الكرام : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم

(١) سورة ص – الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾(١) .

وبوأه ربه منازل الرضا والتكريم فقال لـه : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢) .

وكرمه بالاستعداد الفطري الذي استأهل بـه الخلافـة فـي الأرض : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(٣) .

وسخر كل ما في الكون من أرضه وسمائه لخدمته والانتفاع به : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ

---

(١) سورة البقرة – الآيات ٣١ – ٣٣ .
(٢) سورة البقرة – الآية ٣٥ .
(٣) سورة الإسراء – الآية ٧٠ .

فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١]

ولم يتركه هملاً كما لم يخلقه عبثًا ، فاصطفى منه رسلاً يحملون إليه وحيًا ، يهديه ويسعده في تلك الحياة ، ويعيده بعد الحياة إلى الفردوس والنعيم : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٢] .

هذه قصة الإنسان كما وردت في القرآن الكريم : مكرم مفضل له منزلته السامية ، ومكانته الفريدة في الجنة وفي الأرض .. في الحياة وبعد الموت ، وسر هذا التفضيل والتكريم ما منح من عقل ، وما وهب من علم وإدراك .. وإزاء هذه المنة الإلهية العظيمة أتى واجب التكليف ، وحوسب المرء على ما يقول ويفعل ، وإذا كنا في مقاييسنا البشرية لا نحاسب إلا من له كيان ، ولا نعتب إلا على من ننظر إليه باهتمام ، فإننا ندرك أن مسألة الحساب على

---

(١) سورة الجاثية – الآية ١٣ .
(٢) سورة البقرة – جزء من الآية ٣٨ .

العمل تعد من الله تعالى مزيدًا من التكريم لهذا الإنسان .. لقد حمله مسئولية نفسه لأنه رشيد ، ولأنه عاقل ، ولأنه يزن ما يأتي وما يدع : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[1]

الإخاء الإنساني

لقد وصل الإسلام الإنسانية كلها بأوثق الروابط وأمتن الوشائج والصلات حين ردها إلى أصل واحد هو التراب والماء ، وإلى أب واحد وأم واحدة ، فعقد بينهم سببًا لا تبلى جدته ، ولا تهن قوته مهما امتد في آفاق الأرض ومهما طوف حول هذا الكون .. إن الإسلام يرى أن كثرة أفراد البشرية وشعوبها وقبائلها ينبغي أن تكون مدعاة إلى التعارف والتعاون والوئام ، لا سببًا في التناكر والتعادي والشقاق : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ

---

(١) سورة فصلت – الآية ٤٦ .

وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[١] .

لا مجال للتفاخر :

ومادام الأصل واحدًا ، والنسب واحدًا كذلك .. فليس هناك داع للتفاخر والتعالي والتسلط والكبرياء ؛ إذ القيمة الحقيقية للإنسان التي يحق له أن يزهو بها ويعتز هي الأثر الطيب الذي تصنعه يداه ، والعمل الصالح المبني على تقوى الله تعالى .. يقول رب العزة سبحانه : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[٢] .

ولا مجال للتميز :

وبهذه المساواة في القيمة الإنسانية التي تعتمد على الأصل الواحد والنسب الواحد ، لا يتصور في أحد من بني الإنسان أن يولد متميزًا على غيره في الكرامة والقيمة ، أو فيما ينبغي له من حقوق وكيان .. لقد ولد الجميع في حالة متساوية في كل شيء ..

---

(١) سورة الحجرات – جزء من الآية ١٣ .
(٢) سورة الحجرات – جزء من الآية ١٣ .

ثم منح الجميع بعد ذلك أدوات الفهم والتعقل والتفكير ، ويسر أمام كل فرد سبيل النبوغ فيه : ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[1] .

كما ولد كل إنسان على فطرة نقية سليمة ، تشكل ضميره ووازعه الديني ، بحيث يدرك الخير والشر بوضوح وجلاء ، قال تعالى : ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾[2] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ »[3] .

حق الحياة

من الأصول الأساسية التي يتبناها الإسلام ويضع لها من

---

(١) سورة النحل – الآية ٧٨ .

(٢) سورة البلد – الآية ١٠ .

(٣) أخرجه البخاري – كتاب الجنائز – باب ما قيل في أولاد المشركين – حديث رقم ١٣٨٥ .

القواعد والتشريعات ما يحفظها ويحوطها بالعناية والرعاية هـذا الحق .. فالحياة منحة ربانية أعطيت لنا لنستمتع بها ونعمل على حفظها وصيانتها إلى أن يأتي الأجل المحتوم الذي لا يعلمه إلا من خلق الموت والحياة .

وإذا كان الخلق لم يكن عبثًا ، ولم تكن الحياة سدى ، فليس للإنسان أن ينتحر ويقتل نفسه ، أو يوردها موارد الهلكة ، وإلا استحق اللعنة والغضب من الله تعالى ومن المجتمع ، فليست حياته ملكًا له يتصرف فيها كيف يشاء .. يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[١] .

وليس لأحد مهما كانت مكانته وسلطانه أن يغصب الإنسان حق الحياة ، ومن فعل ذلك بغير حق فقد آذن الناس جميعًا بالحرب ، وآذن معهم رب الخلق الذي جعل لنفسه وحده صفة الإحياء والإماتة .. والإنسانية كلها متضامنة في كف اليد التي تبسط لقتل أي إنسان ، فإن كل بني آدم إخوة .. حق كل واحد

---

(١) سورة النساء – جزء من الآية ٢٩ .

منهم في أن يعيش هو حق الآخـــر ، فإذا قصرت الإنسانية فـــي ذلك .. دخلت كلها في إثم إقرار الجريمة وعدم استنكارها : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴾[١] .

ثم إن الإسلام لم يشرع حد القصاص في القتلـــى إلا حفاظًـــا على هذا الحـــق المقـــدس : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٢] .. ولم ينكر ويسخر القـــرآن مـــن طوائف العرب الذين كانوا يئدون بناتهم في الجاهلية إلا حفاظًـــا كذلك على هذا الحق الذي يستوي فيه الرجال والنساء .. انظـــر إلى هذه الوحشية التي يصورها القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ

---

(١) سورة المائدة – جزء من الآية ٣٢ .
(٢) سورة البقرة – الآية ١٧٩ .

أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(1) .. ثم انظر إلى تحطيم هذه الأسباب التي يبنون عليها إزهاق تلك الروح : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾(2) .

أما الحرب المشروعة في الإسلام فهي مختصة بالدفاع عن النفس ، وعن العقيدة ، والحرية ، واستبعاد الفتنة ، واضطهاد المؤمنين ، وإكراههم على الخروج من دينهم .. والحرب في هذه الحالات ضرورة كضرورة بتر العضو الفاسد حتى لا يؤثر على بقية الأعضاء ، فهي كمبضع الطبيب الذي يضحي بالجزء

---

(1) سورة النحل – الآيتان ٥٨ ، ٥٩ .
(2) سورة الإسراء – الآية ٣١ .

لإصلاح الكل ، فإذا ما اندفع الخطر وساد الأمن والاستقرار ، وسلم المحاربون ، فإن الإسلام يقبل هذا السلام ويضع أوزار الحرب استجابة لقول الله سبحانه : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[1] .

حق المساواة

انطلاقًا من مبدأ الإخاء الإنساني الذي تحدثنا عنه ، بنى الإسلام علاقة الإنسان بأخيه على مبدأ المساواة المطلقة أمام القانون .. حتى يستقر العدل ويسود الحق ، وتنمحي كل أثارة من ظلم وإجحاف ، فلا تمييز بين فرد وآخر لأي اعتبار سوى التقوى والعمل الصالح ، وحتى هذا الاعتبار لا يعطي لصاحبه حقًا زائدًا على غيره .. ولكنه فقط يفرض التقدير والاحترام له من المجتمع .. أما أن يحابى أو أن يكون عمله وتقواه وسيلة لنيل حق

(١) سورة الأنفال – جزء من الآية ٦١ .

ليس له فهذا ما يرفضه الإسلام .. وإذا كانت بعض الآراء الحديثة قد أغرقت وتغالت في إبراز شعارات التمييز بين الناس ، فجعلت بعض العناصر تفوق الأخرى ، فهذا سامي وذاك آري ، وهذا يجري في عروقه الدم الألماني ، فإن الإسلام يرد الجميع إلى أصل واحد ، إلى عنصر واحد : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[1] .

وإذا كانت نعرة الأجناس قد ذاعت وفشت على هيئة قوميات وجنسيات مختلفة ، فإن الإسلام لم يعط جنسًا فضلاً على آخر .

إن الإسلام لم ينزل للعرب فقط .. ولم تقتصر الدعوة إليه على هذا الجنس .. إنه دين عالمي يخاطب نبيه قائلاً : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[2] .

---

(١) سورة النساء – جزء من الآية ١ .
(٢) سورة الأعراف – جزء من الآية ١٥٨ .

نظرة الإسلام إلى الجنس العربي :

غاية ما هنالك أنه أنزل باللغة العربية ، وطبق أولاً في الأرض العربية .. وحملته إلى الناس كثرة من الجنس العربي .. ومع أن هذه الميزات التي نالها العرب لم يُعطوا فضلاً على من سواهم ، بل حملتهم مسئولية التبليغ والدعوة إلى الله تعالى .

قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾[1] ، ولقد طبقت تلك المساواة بين العرب والعجم على أساس الكفاءة والديانة والجدارة .. يروى عن " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه أنه وقف على بابه " أبو سفيان بن حرب " و" بلال الحبشي " فأذن لبلال قبل أبي سفيان ، ضرورة أن " بلالاً " وهو حبشي كان من السابقين إلى الإسلام أما " أبو سفيان " فقد تأخر إسلامه إلى يوم الفتح المبين .

لا تمييز بسبب اللون :

وليس في الإسلام كذلك تمييز بسبب اللون ، فإنه يعتبر

---

(١) سورة الزخرف – الآية ٤٤ .

اختلاف اللون في الإنسان كاختلافه في الزهـور والريـاحين ، ويجعل هذا الاختلاف دليلاً على إبداع القـدرة الإلهيـة : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[١] .

والرسول صلى الله عليه وسلم يغضب بشدة حين يسمع تلميحًا بهـذا التمييز في مجتمع كان يعد سواد اللون نقصًا وضـعة ، ويغمـط الأسود حقه ولو كان كفئًا .. ولا أدل على ذلك من هضـم حـق الشاعر الفارس عنترة بن شداد العبسي .

عَنِ الْمَعْرُورِ قَالَ : لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلاً ، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ ، فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : « **يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ** »[٢] .

---

(١) سورة الروم – الآية ٢٢ .
(٢) أخرجه البخاري – كتاب الإيمان – باب المعاصي من أمر الجاهلية – حديث رقم ٣٠ .

وبمثل هذه التوجيهات الحكيمة محيت من نفـوس المسـلمين هذه التفرقة محوًا قاطعًا ، فقد أرسل " عمرو بن العـاص " إلـى المقوقس وفدًا وجعل رئيسه " عبادة بن الصامت " وكـان أسـود اللون ، فغضب المقوقس لسواده ، وبسطة جسمه وطلب أن يتكلم غيره ، فرفض الوفد قائلاً : " إن هذا أفضلنا رأيًا وعلمًـا وهـو سيدنا وخيرنا " .

لا تمييز بسبب الدين :

ولا تمييز في الإسلام كذلك بالنسبة للمعاملة بسبب الـدين أو التقوى والصلاح – كما ألمحنا إلى ذلك فيما سبق – ، إن الـنفس الإنسانية محترمة مكرمة بدون نظر إلى دينها أو جنسـها ، فقـد مرت جنازة على النبي صلى الله عليه وسلم فوقف لها ، فَقِيلَ لَـهُ إِنَّهَـا جَنَازَةُ يَهُودِيٍّ . فَقَالَ النبي صلى الله عليه وسلم : « **أَلَيْسَتْ نَفْساً** »[1] .

فإذا ما حدثت مقاضاة بين اثنين وكان أحـدهما أتقـى مـن

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الجنائـز – باب من قام لجنازة يهـودي – حـديث رقم ١٣١٢ .

الآخــر ، أو كان أحدهما مسلمًا وكان الآخر يهوديًا أو مسيحيًا ، فلا اعتبار لشيء من ذلك أمام القضاء .

شكا يهودي " عليًا " إلى " عمر " في خلافة " عمر " ، فلمــا مثلا بين يديه خاطب " عمر " اليهودي باسمه وخاطب " عليًّــا " بكنيته ، فقال : يا أبا الحسن ، حسب عادته في الخطاب ، فظهر أثر الغضب على وجه " عليّ " ، فقال له " عمر " : أكرهــت أن يكون خصمك يهوديًا ، وأن تمثل معه أمام القضاء وعلــى قــدم المساواة ؟! فقال " علي " : " ولكنني غضبت لأنك لم تسو بينــي وبينه ، بل فضلتني عليه ، إذ خاطبته باسمه بينما خاطبتني بكنيتي " .

هكذا غضــب " علي " لهذا التمييز الواهي غير المقصــود ، و" علي " ليس مسلمًا فقط وخصمه يهودي .. ولكن من الصــفوة الممتازة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لا تمييز بين قوي وضعيف :

ولا اعتبار كذلك للوضع الاجتماعي ، فلا تمييز في القضــاء بين قوي وضعيف ، أو شريف وسوقة ، أو حاكم ومحكوم .

شفع " أسامة بن زيد " وكان حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في " فاطمة بنت الأسود " المخزومية عندما وجب عليها حد السـرقة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتهره الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً : « أتشفعُ فِي حَدٍّ مِن حُدُودِ اللَّهِ » . ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ قَـالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا »[1] .

وخطب " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه فقال : " أيها الناس ، إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه " .

وكتب إلى " أبي موسى الأشعري " في رسالة القضاء : " آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فـي حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك " .

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الحدود – باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان – حديث رقم ٦٧٨٨ .
وأخرجه مسلم – كتاب الحدود – باب قطع السارق الشريف وغيره والنهـي عن الشفاعة في الحدود – حديث رقم ٤٥٠٥ .

وكتب إلى الخليفة من بعده : " اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله " .

لا تمييز بسبب الرأي :

ولا اعتبار كذلك باختلاف الرأي السياسي في الدولة ، فعلى رئيس الدولة أن ينفذ حكم الله تعالى بالعدل والقسط على الجميع ، لا فرق بين مؤيديه ومخالفيه ، استجابة لقول الله تعـالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وإذا كان الإسلام لا يضع في اعتباره أمام المسـاواة بـين الإنسانية كلها عوامل الدين ولا اللغة ولا الجنس ولا اللـون ولا الرأي السياسي ، فهو كذلك لا ينظر إلى الأصل الوطني علـى أنه ميزة تعطي لصاحبها حقًّا أفضل من الغريب .. فلقد كانـت

---

(١) سورة المائدة – جزء من الآية ٨ .

مكة هي الموطن الأصلي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمهاجرين رضي الله عنهم .

ولما ذهبوا إلى المدينة وجدوا فيها بروح الإسلام وطنًا وأهلاً وأنصارًا لم يظفروا بهم في موطنهم مكة ، ذلك أن الإسلام جعل وطن المسلم ليس هو الأرض التي ولد عليها وعاش عليها فقط ، ولكن الوطن الصحيح هو الأرض التي وجد نفسه حرًّا عليها في دينه وعقيدته ويحكمها الإسلام ، أيًّا كانت هذه الأرض ، وأي انحراف عن هذه النظرة نفاق ومرض نفسي .

هذا " عبد الله بن أُبي " يثير فتنة في غزوة " بني المصطلق " أساسها أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه المهاجرين غرباء عن المدينة ، وأن أهل المدينة هم الذين آووهم ونصروهم ، ولو أن أهل المدينة منعوا عنهم المعونة لانفضوا عن هذا الوطن ، ومغزاها أن الوطني أعز من الغريب ، ولو كان مشتركًا في الدين واللغة ، وفي هذا يقول الله ﷻ : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١] .

لا تمييز بسبب الغنى والفقر :

ولا اعتبار في الإسلام كذلك لفوارق الغنى والفقر ، فلا الغنى يعطي صاحبه حقًا ، ولا الفقر يبخس صاحبه شيئًا من حقه ، ولقد صرح القرآن الكريم بذلك فقال : ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾[٢] .

بل إنه لا يصح في عرف الإسلام أن يحترم الغني لغنـــاه ، وأن يحتقر الفقير لفقره ، فمقاييس الرجال لا ينبغي أن تكون رهن المظاهر الخادعة .. عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ قَـالَ : مَـرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ : « مَا

(١) سورة المنافقون – الآيتان ٧ ، ٨ .
(٢) سورة النساء – جزء من الآية ١٣٥ .

رَأْيُكَ فِى هَذَا ؟ » . فَقَالَ : رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ ، هَـذَا وَاللَّـهِ حَرِىٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ . قَـالَ : فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ فَقَـالَ لَـهُ رَسُـولُ اللَّـهِ صلى الله عليه وسلم : « **مَا رَأْيُكَ فِى هَذَا ؟** » . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، هَذَا حَرِىٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ صلى الله عليه وسلم : « **هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا** »[(١)] .

بعد هذا البيان الواضح لنصوص الإسلام القاطعة ، يتبيّن إلى أي مدى بلغت قيمة المساواة بين أفراد هذا الجنس البشري كله في كنف التشريع الإسلامي .

حق الحرية

الحرية هي الإطار الذهبي الذي يبدو فيه الإنسان وهو يرفرف في أفقه الإنساني الرفيع ، متميزًا به على ما سواه من

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الرقاق – باب فضل الفقر – حديث رقم ٦٤٤٧ .

المخلوقات .

لقد منح عقلاً وتفكيرًا وإرادة ، وفتحت له أبـواب الاختيـار والتمييز بمقتضى هذا العقل وتلك الإرادة ، لا سلطان عليه ، ولا جبار يقف بالمطرقة بين يديه .. إن الله تعالى قد جعله سيد هـذا الوجود ، وجعل الكون كله مسخرًا لخدمته ، وجعل المخلوقـات جميعًا تطأطئ رأسها لهامته .

إن هذه الحرية التي وهبها الله تعالى لبني الإنسان منذ أن وطئوا بأقدامهم هذه الأرض شيء نفيس وهبة غالية لا ينبغي التفريط فيهـا لأي متسلط جبار .. إن معنى العبودية لله وحده أن يخلع الإنسان كل عبودية لما سواه .. وهذا هو أصل العقيدة الإسلامية .. وأن يتخلص الإنسان من كل ذلة أو خضوع لغير الله تعالى .. إن الجبين الذي يسجد لرب العباد ، لا ينبغي له ولا يتأتى منه أن يخفضه لغير الله تعالى .. من هذا المعنى الحي انطلق صوت " عمر بن الخطاب " يستنكر ما فعله ابن " عمرو بن العاص " قائلاً : " **متى اسـتعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ؟!** " .

ومن هذا المعنى كذلك سخر سيدنا " موسى " عليه السلام من " فرعون " المتسلط على بني إسرائيل قائلاً : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[1] .

بل إن هذا المعنى السامي هو الذي يفرض على المسلمين أن يحاربوا المستبدين لإنقاذ المستضعفين : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[2] .

ومن هذا المعنى كذلك يفرض الإسلام الهجرة من موطن الذلة والاستضعاف إلى موطن آخر يحصل فيه على أمنٍ حق يتصل بالكرامة الإنسانية ، فإذا ما أهمل هذا الذليل المستضعف ولم يهاجر فمأواه جهنم وبئس المصير : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ

---

(١) سورة الشعراء – الآية ٢٢ .
(٢) سورة النساء – الآية ٧٥ .

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾[1] .

بل لقد وصلت قداسة الحرية إلى درجة جعلت من أهداف سيدنا " موسى " *عليه السلام* تخليص الأذلاء من قيود الذل والاستكانة لفرعون : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾[2]

مفهوم مغلوط للحرية :

هكذا يحرص الإسلام على الحرية .. ولكن ويالِلأسف لقد التبس بهذه الكلمة معان ساقطة هابطة لا تتسق مع سموها

---

(١) سورة النساء – الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .
(٢) سورة القصص – الآيتان ٥ ، ٦ .

ومكانتها ، لقد فهمها البعض حديثًا على أنها الفوضى والتهاون بالقيم والفضيلة والأخلاق ، وفهمها البعض الآخر على أنها ممارسة لكل النزوات والشهوات ، وانطلاق من كل القيود والضوابط الإنسانية والاجتماعية ، فلا يهمه في سبيل هذه الحرية الزائفة أن يعتدي على حرية الآخرين ، وعلى حقوق الآخرين .

إن الحرية لا تعني أن يفعل الإنسان ما يشاء ، ويترك ما يريد ، لكنها تعني ألا يخضع لأحد سوى ربه ، وألا يذل نفسه لمخلوق ، وأن يرعى حرية الآخرين .. بل إن إيمان الإنسان بأنه مكلف هو أول خطوة من حريته ، ذلك أن الحرية معنى اجتماعي لا يتصور وجوده إلا في مجتمع يأخذ الأفراد منه ويعطون .. وإذن لابد لها من قيود في هذا المجتمع حتى لا تتضارب الحريات ، ولا تتصادم الرغبات ، وكل تقييد للحرية لابد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية ذاتها ، وإلا كان عدوانًا عليها ، فتقييد حرية المنفلتين الذين لا يراعون حق المجتمع يكون المبرر له هو المحافظة على حرية المجتمع .

إن النفس الإنسانية حينما تسمو وتشف فإنها تستشعر حرية

الآخرين ، وتجد في داخل أقطارها من الحياء ما يمنعها من التعدي والجور .. وهذا السمو وتلك الشفافية وذلك الحياء هو ما يهدف إليه الإسلام في تكوين الشخصية المسلمة المتزنة ، وما أروع قوله صلى الله عليه وسلم : « **إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ** »[1] .. أي أنه إذا انطلقت النفس فقد ذهبت الحرية والإنسانية معًا ، وعاد الناس إلى حياة الوحوش في الغابات .

الحرية الشخصية

أول مظهر من مظاهر التمتع بالحرية ، هي الحرية الشخصية ، وهي تتناول حرية الاعتقاد والتدين ، وحرية الرأي والتفكير ، وحرية العمل والتصرف .

أولاً : حرية الاعتقاد والتدين :

بناها الإسلام على عناصر ثلاثة :

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الأدب – باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت – حديث رقم ٦١٢٠ .

الأول : التفكير الحر الذي يرفض التقليد والضغط .

الثاني : منع الإكراه على عقيدة معينة .

الثالث : حماية العمل على مقتضى العقيدة وأداء الشعائر التي تتطلبها العقيدة .

فأما العنصر الأول : فقد نعى الإسلام وسخر ممن يعتمد على التقليد للآباء في العقيدة ، *قال تعالى* : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[١] .. ودعا الناس إلى التفكير والاستدلال وتعرف الحقائق بعقولهم ، فقال سبحانه : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[٢] ، ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ

---

(١) سورة المائدة – الآية ١٠٤ .
(٢) سورة يونس – الآية ١٠٤ .

أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[1] .

وأما العنصر الثاني : فقد حرم الإسلام إكراه الناس على الدخول في الدين ، قال تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾[2] ، وقال : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾[3] .. وما أبيح القتال في الإسلام – كما تقدم – إلا لحماية الحرية الدينية ولمنع الفتنة والاضطهاد والإكراه ، قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4] .. ولقد كان المسلمون الأولون حريصين على تنفيذ هذه التوجيهات بدقة متناهية .

يروى في هذا أن عجوزًا نصرانية قابلت " عمر بن الخطاب " لحاجة لها عنده ، وبعد أن أداها لها دعاها إلى الإسلام ، فأبت

(١) سورة النمل – الآية ٦٠ .
(٢) سورة البقرة – جزء من الآية ٢٥٦ .
(٣) سورة يونس – جزء من الآية ٩٩ .
(٤) سورة البقرة – الآية ١٩٣ .

فخشي " عمـــر " أن يكون في كلامه إكراه لها فقال : " اللهم إني لم أُكرهها " .

وأما العنصر الثالث : فقد حمى الإسلام من يكونون في ظل حكمه من غير المسلمين في عبـــاداتهم وشـــعائرهم .. والقاعـــدة المعروفة التي نفذت على مدى العصور : " **إننا أُمرنا بتركهم وما يدينون** " ، ولا أدل على ذلك من معاهدة الرســـول صلى الله عليه وسلم لليهود في المدينة على حسن الجوار ، وعلى ترك حريتهم الدينية يقيمون شعائرهم كما يحبون .

ولقد عاهد " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه أهل بيت المقدس على هذه الحرية ، فكان في نص معاهدته معهم : " هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانًا لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم ، لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم " .

والذي يدعو إلى الدهشة فعلاً أن الإسلام لا يبيح وجود ديـــن آخر معه في بلد واحد فحسب ، بل أنه يبيح وجوده فـــي البيـــت الواحد ، وعلى مرقد واحـــد ، فأجـــاز الـــزواج مـــن اليهوديـــة والمسيحية ، على أن يصـــرح لها الزوج المسلم بـــأداء شـــعائر

دينها كما تشاء .

بهذه العناصر الثلاثة شيد الإسلام بناء الحرية الدينية على أساس التسامح والمعاملة العادلة النزيهة التي تحترم حرية الآخرين .. ذلك أنه دين يقف على أرض صلبة متينة ، دلائله واضحة ، وبراهينه قاطعة ، وتعاليمه تساير الفطرة البشرية ، وقرآنه الكريم يخاطب نبيّه بقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[١] ، وبقوله : ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾[٢] ، وبقوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[٣] ، وبقوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[٤] .

---

(١) سورة الغاشية – الآيتان ٢١ ، ٢٢ .
(٢) سورة آل عمران – جزء من الآية ٢٠ .
(٣) سورة المائدة – جزء من الآية ٩٢ .
(٤) سورة التوبة – الآية ١٢٩ .

الردة نفاق وبلبلة :

وهنا يثور من البعض تساؤل لابد من الإجابة عليه حتـــى لا يكون هناك شك أو ريبة تشوه هذا البناء المشيد : لماذا – وفي الإسلام هذه السماحة المنقطعة النظير – تقتلون المرتد عن الإسلام ؟

ونقول : إن الدخول في الإسلام كما ذكرنا مشروط بالبحــث والتفكير والنظر والموازنة بينه وبين ما سواه ، فإذا ما دخل أحد هذا الدين بعد هذا النظر المفروض عليه والاقتناع به ، ثــم أراد الخروج منه فما هو إلا أحد شخصين :

إما متآمر : يدخل في الإسلام ويخرج منه ليحدث بلبلة فـــي المجتمع ، وخلخلة في النظام العام كما كان يحدث من أهل الكتاب في بدء الإسلام ، وحكاه لنا القرآن الكريم في قولـــه : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1] ، ولا أظن أن

---

(١) سورة آل عمران – الآية ٧٢ .

مثل هذا العبث يقبله أي نظام يريد لأتباعه الهدوء والاستقرار .. إنه في الحقيقة تعد على الآخرين وإثارة للفتنة والشغب والاضطراب في المجتمع ، وعمل على قلب النظام العام الذي ارتضاه الشعب دينًا وعقيدة .

وإما أنه شخص نفعي مذبذب : لا يستقر على رأي وعقيدة ، إذ ما الذي دعاه إلى ترك دينه الأول ؟ وما الذي دعاه إلى الدخول في الإسلام ؟ ثم ما الذي دعاه إلى الخروج منه علنًا وأمام الناس ؟ إنه من البدهي المعلوم للجميع أن النظام الإسلامي لا يتدخل في نوايا الناس ولا في بواطنهم .. إن له الظاهر ، والله تعالى يتولى السرائر .. فإذا ما زاغت عقيدة مسلم ما ولم تظهر منه بوادر الكفر والزندقة في المجتمع فلن يتعرض لمكروه ، أي أنه لو اقتصر كفره وضلاله على نفسه .. فجزاؤه عند الله تعالى على هذا الضلال وليس للدولة الإسلامية عليه من سلطان .. أما إذا دعا إلى الكفر وطعن في دين الأمة ، فإنه يعتبر متعديًا على الآخرين ، ومشجعًا على الفساد والكفر ، ومحرضًا على نبذ الإيمان وإطفاء نور الله تعالى .

الجزيـــــة :

وهناك تساؤل آخر يمليه الجهل بطبيعة الإسلام .. ولابد من تبديد شبهاته .. لماذا إذن يفرض الإسلام على غيـر المسـلمين جزية في أموالهم ؟ أليس في هذا إذلال لهم وأخذ لأموالهم مقابـل عدم إسلامهم ؟

ولبيان الحقيقة لابد أن يعرف الجميع أن الإسلام لا يفـرض على المخالفين لعقيدته أن ينضموا إلى جيش المسلمين ، لأنه ليس لديهم الوازع الديني الذي يجعلهم حريصين على نصر هذا الـدين أو تعزيز بناء دولته ، كما أن إجبارهم على ذلك منـاف لطبيعـة الأشياء ، إذ كيف يطلب من إنسان أن يدافع عن عقيدة غيره ؟ مع هذا لهم حق الأمان من المسلمين ، أي أن المسـلمين مفـروض عليهم حمايتهم من أي عدوان داخلي أو خـارجي .. فهـل مـن العدالة والإنصاف أن يكون كل الغرم على المسلمين ، وكل الغنم لغيرهم على حين أنهم يعيشون في بلد المسلمين ؟

إن الذين حسبوا الجزية بدلاً عن الإسلام واهمون ، إنها بدل

من الحفظ والحماية والأمان ، وإسهام في إنشاء وصيانة المرافق العامة .. كما أنها دليل على أنهم لا يضمرون كيدًا ولا سوءًا بالمسلمين ، فهي علامة لخضوعهم للنظام .. فإن لم يدفعوها ويسهموا بها في تكاليف الأمن ، فهم غير متعاونين ، ولا يحق لهم أن يدخلوا في ذمة المسلمين ورعايتهم .. وهذه نتيجة منطقية لا يشوبها أدنى ظلم ولا إجحاف .

ثانيًا : حرية الرأي والتفكير :

إن الرأي منتهى ما يستقر في الذهن بعد البحث والتفكير ، ومن حق المجتمع الذي ربى هذا الذهن وأولاه عنايته أن ينتفع بثمرته ، وهو لا ينتفع بذلك إذا كان هناك قيد على نشر هذه الآراء مادامت في محيط النفع العام ، ومادامت في دائرة العقل ، وفي إطار من الاحترام يحجزها عن التعدي على حرمات الآخرين ، أو على قدسية الأديان والقانون .

إن الآراء السليمة هي التي تكون الجو المناسب للتقدم الحضاري المنشود ، وإن الجو الإسلامي لهو خير الأجواء التي

تنمو فيها الآراء السامية الهادية إلى الخير والمصلحة العامة .

في غزوة بدر الكبرى ، وفي أول لقاء بين الإسلام والكفر تخيّر الرسول صلى الله عليه وسلم مكانًا للمعركة رأى أنه الموقع المناسب ، ومع أن الرسول صلى الله عليه وسلم يتمتع بين أمته باحترام وتقدير خاص حيث إنه الموحى إليه .. مع هذا ينفسح مجال الإسلام للرأي والمناقشة ، قال له سيدنا " الحباب بن المنذر " في أدب جم وفي حرص شديد على مصلحة المسلمين : " أرأيت هذا المنزل أهو منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عليه أو نتأخر ، أو هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ " فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " **بل هو الرأي والحرب والمكيدة** " فقال : " ليس هذا بمنزل يا رسول الله ، انهض بالناس حتى نأتي على أدنى ماء من القوم ، ثم نغور ما وراءه فنشرب ولا يشربون "(١) ولم يسع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن يستجيب لرأي هذا الجندي الباسل المخلص .

وفي غزوة الأحزاب أخذ كذلك برأي سيدنا " سلمان الفارسي "

---

(١) رواه ابن حبان في كتابه " الثقات " .

في حفر الخندق .

وفي غزوة بني قريظة لما قال الرسول صلى الله عليه وسلم يَوْمَ الأَحْزَابِ : « **لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَّ فِى بَنِى قُرَيْظَةَ** » . فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ نُصَلِّى حَتَّى نَأْتِيَهَا . وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ نُصَلِّى ، لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذَلِكَ ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِىِّ صلى الله عليه وسلم فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِداً مِنْهُمْ(١)

الآراء المدمرة مرفوضة :

بيد أنه لا ينبغي أن تتخذ هذه الحرية ذريعة لإشاعة المذاهب الهدامة والدعوة إلى الفساد والانحراف ، ولابد أن تلتزم الآراء خط الفضيلة والمبادئ ، ولابد كذلك أن تلتزم قانون العلم والتمحيص حتى لا يذاع على الناس كل باطل وهراء ، ولابد أن يتخذ أصحاب الفكر آلات العلم التي منحها الله تعالى للإنسان في

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب المغازي – باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة – حديث رقم ٤١١٩ .
وأخرجه مسلم – كتاب الجهاد والسير – باب من لزمه أمر فدخل عليه أمر آخر – حديث رقم ٤٧٠١ .

الوصول إلى الرأي الصائب : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[1] .

مفارقة واضحة بين ميثاق البشر وشريعة الإسلام

على أن هناك فارقًا ضخمًا بين التعبير الحديث بحرية الرأي التي تعني إباحة نشره فحسب ، وبين مبدأ الإسلام الذي يفرض إعلان هذا الرأي مادام في دائرة النفع العام ، وفي إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إن الإسلام يعتبر هذا الأمر وذلك النهي فريضة على كل مسلم مستطيع ، وبذلك يفتح الإسلام أقطار العقل والفكر من كل أبوابها ليفكر كل مسلم فيما هو واقع في المجتمع ، ليُكوّن عنه الآراء السليمة ، ويعلنها على الناس ، وهو بهذا الإعلان يؤدي واجبًا لا يفعل مباحًا ، أي أن إبداء الآراء الصائبة في الإسلام ليس ترفًا عقليًا يباشره من يشاء ، ولكنه واجب اجتماعي وفرض ديني ، لا يتخلص المؤمن من تبعته

---

(١) سورة الإسراء – الآية ٣٦ .

الاجتماعية إلا حينما يؤديه على خير الوجوه . قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ رَأى مِنكُمْ مُنكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإيمَانِ »[1] ، ويقول الله ﷻ في وصف المجتمع المسلم : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[2] ، ويربط أهلية المسلين للصدارة والقيادة لكافة الأمم بمدى محافظتها على القيام بهذا الواجب مع الإيمان بالله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[3] .

ثالثًا : حرية العمل والتصرف :

هناك فرق كبير كذلك بين التعبير بحرية العمل الذي يجعل

---

(١) أخرجه مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان – حديث رقم ١٨٦ .

(٢) سورة التوبة – جزء من الآية ٧١ .

(٣) سورة آل عمران – جزء من الآية ١١٠ .

العمل مباحًا وجائزًا ، وبين روح الإسلام التي توجب هذا العمل وتحث عليه بشتى أنواع الأوامر والأساليب .. إن الحديث عن العمل يتخذ صيغة الأمر في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[١] ، وفي قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[٢] ، ويتخذ صيغة الامتنان بما هيأه الله تعالى من وسائل العمل والإرشاد إلى استغلال الثروات والخيرات التي بثها الله تعالى في هذا الكون في مثل قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ

---

(١) سورة التوبة – جزء من الآية ١٠٥ .
(٢) سورة الملك – الآية ١٥ .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾[١] .. وتتخذ صيغة الحث والتأكيد في وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول صلى الله عليه وسلم : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ »[٢] .. ويعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم العمل جهادًا في سبيل الله تعالى مادام لغرض شريف نبيل .

عَنْ كَعْبِ بن عُجْرَةَ قَالَ : مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم رَجُلٌ ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ جِلْدِهِ وَنَشَاطِهِ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ

---

(١) سورة طه – الآيتان ٥٣ ، ٥٤ .
(٢) أخرجه البخاري – كتاب البيوع – باب كسب الرجل وعمله بيده – حديث رقم ٢٠٧٢ .

كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ »[١] .

وبجانب هذه التوجيهات الإسلامية إلى العمل نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يحرم البطالة والتسول ، قال صلى الله عليه وسلم : « **مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ** »[٢] ، ويحرم الإسلام وسائل الكسب التي تشجع على الراحة والكسل وتعتمد على المال وحده دون جهد ولا عناء ولا مخاطرة ، ويتمثل ذلك في تحريمه للربا ، يعني أن المال يلد المال دون أن يدخل الجهد البشري كعامل فعّال في نتيجة الكسب ، والقرآن الكريم يعلن حرب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم على المرابين فيقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ

---

(١) رواه الطبراني في الثلاثة ، وفي الكبير رجاله رجال الصحيح ، والحديث صحيح لغيره – حديث رقم ١٥٦١٩ .

(٢) أخرجه البخاري – كتاب الزكاة – باب من سأل الناس تكثرًا – حديث رقم ١٤٧٤ .

وأخرجه مسلم – كتاب الزكاة – باب كراهة المسألة للناس – حديث رقم ٢٤٤٥ .

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[١] .

وكذلك حرم الإسلام جميع الطرق التي تؤدي إلـــى تضـــخم الأموال عن طريق غير مشروع كابتزاز أموال الناس ، أو غشهم ، أو التحكم في ضروريات حياتهم ، واستغلال عوزهم وحاجتهم ، أو عن طريق الانتفاع بالسلطان والجاه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٢] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « **وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا** »[٣] ، وقال : « **مَنِ احْتَكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ** »[٤] ، وعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ : استَعْمَلَ رَسُولُ اللَّـــهِ صلى الله عليه وسلم رَجُلاً عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ يُدْعَى ابْنَ اللُّتَبِيَّةِ ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ

---

(١) سورة البقرة – الآية ٢٧٨ وجزء من الآية ٢٧٩ .
(٢) سورة البقرة – الآية ١٨٨ .
(٣) أخرجه مسلم – كتاب الإيمان – باب قـــول النبي صلى الله عليه وسلم : « **مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا** » – حديث رقم ٢٩٤ .
(٤) أخرجه مسلم – كتاب المساقاة – باب تحريم الاحتكار في الأقوات – حـــديث رقم ٤٢٠٦ .

قَالَ : هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « **فَهَلاَّ جَلَسْتَ فِى بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ ، حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً** » . ثُمَّ خَطَبَنَا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : « **أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّى أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلاَّنِى اللَّهُ ، فَيَأْتِى فَيَقُولُ هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِى . أَفَلاَ جَلَسَ فِى بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ ، وَاللَّهِ لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئاً بِغَيْرِ حَقِّهِ ، إِلاَّ لَقِىَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلأَعْرِفَنَّ أَحَداً مِنْكُمْ لَقِىَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيراً لَهُ رُغَاءٌ ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ** »[1] .

ولقد صادر " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه هدايا عماله على البصرة والبحرين ، وقاسم مال عماله على الكوفة ، وفعل مثل ذلك مع " عمرو بن العاص " حين كان واليًا على مصر ، فقد كتب إليه : " إنه فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر " .. فكتب إليه " عمرو " : " إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر ، فنحن نصيب فضلاً عما تحتاج إليه نفقاتنا ، فكتب إليه " عمر " : " إني قد خبرت من عمال السوء ما

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الحيل – باب احتيال العامل ليهدى له – حديث رقم ٦٩٧٩ .

كفى ، وكتابك إليّ كتاب من أقلقه الأخذ بالحق ، وقد سئت بك ظنًا ، ووجهت إليك " محمد بن مسلمة " ليقاسمك مالك فأطلعه وأطعه وأخرج إليه ما يطالبك ، وأعفه من الغلظة عليك ، برح الخفاء .. وأذعن " عمرو " للأمر وتركه يقاسمه ماله .

بهذه التشريعات الحاسمة رفع الإسلام من قيمة العمل حتى جعله أفضل من الانقطاع لعبادة الله تعالى .

مسئولية الدولة في توفير فرص العمل :

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره رئيس الأمة يحاول فتح أبواب العمل وتهيئة وسائله لمن يريد ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَسْأَلُهُ فَقَالَ : « **أَمَا فِى بَيْتِكَ شَىْءٌ ؟** » . قَالَ : بَلَى : حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ قَالَ : « **ائْتِنِى بِهِمَا** » . فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِيَدِهِ وَقَالَ : « **مَنْ يَشْتَرِى هَذَيْنِ ؟** » . قَالَ رَجُلٌ : أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ . قَالَ : « **مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ ؟** » مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا ، قَالَ رَجُلٌ : أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ . فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ

الدِّرْهَمَيْنِ وأَعْطَاهُمَا الأَنْصَارِىَّ وَقَالَ : « **اشْتَرِ بِأحَدِهِمَا طَعَاماً فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُوماً فَأْتِنِى بِهِ** » . فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عُوداً بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : « **اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً** » . فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْباً وَبِبَعْضِهَا طَعَاماً . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « **هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِى وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »[1] .

حقوق العمال :

وحرص الإسلام كذلك على إنصاف العامل وإيفائه حقه كاملاً في الأجرة دون بخس ولا ظلم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾[2] .

وحث الإسلام كذلك على حماية العامل من الأخطار والعمل

(١) أخرجه أبو داود – كتاب الزكاة – باب ما تجوز فيه المسألة – حديث رقم ١٦٤١ .
(٢) سورة الأعراف – جزء من الآية ٨٥ .

على تأمينه في عمله ورعايته رعاية تامة ، يقص الله ﷻ قصـــة الرجل الصالح وهو يساعد عمال البحر ويقيهم من خطر اغتصاب الظالم لســفينتهم فيقــول علـــى لســانه : ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[١] ، وفي هذا توجيه للأمة الإســـلامية أن تحـــذو حذو هـــذا الرجل الذي يصـــفه القرآن الكريم بقوله : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[٢] .

ولما كان للجسم طاقة محدودة في مواصلة العمل ، وللـــنفس كذلك طاقة ينتابها عند مجاوزتها الملل ، فقـــد أعطـــى الإســـلام للعامل حق الراحة وحق تحديد ساعات عمله بمـــا يـــتلاءم مـــع المحافظة على صحته ، وما يتفق مع دوام التجديد لنشاطه وقوته ،

---

(١) سورة الكهف – الآية ٧٩ .
(٢) سورة الكهف – الآية ٦٥ .

قال صلى الله عليه وسلم : « **فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا** »[١] ، وقال عن الخادم يوصي به مخدومه : « **وَلاَ يُكَلِّفُهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ** »[٢] .

وخلاصة ما يهدف إليه الإسلام أن يضمن للعامل حق المعيشة في مستوى لائق من التغذية والملبس والمسكن والعناية الصحية ، وفي إطار الرحمة التي لا تكلفه ما لا يطيق ولا تفرض عليه ما لا يستطيع ، وفي رعايته كذلك لما تتطلبه المصلحة العامة ، فإذا كانت قدراته وطاقاته لا تمكنه من كسب ما يفي بكل حاجاته ، فإن له حقًا آخر على المجتمع هو حق الفقراء والمساكين من الزكاة والصدقات من بيت المال تكفل له هذا المستوى الكريم من المعيشة اللائقة بقيمة الإنسان .

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الصوم – باب حق الجسم في الصوم – حديث رقم ١٩٧٥ .
وأخرجه مسلم – كتاب الصيام – باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا – حديث رقم ٢٧٨٧ .

(٢) أخرجه البخاري – كتاب الأدب – باب ما ينهى من السباب واللعن – حديث رقم ٦٠٥٠ .

الحرية المدنية

هذا الاصطلاح الحديث يعني في العرف الدولي صفة الرشد التي تجعل الشخص أهلاً لأن يتحمل الالتزامات ، ويعقد باسـمه مختلف العقود المشروعة من بيع وشراء وهبة ورهن ووصـية ، وما إلى ذلك ، ويقابل هذه الحرية حالة الرق التي تحكـم علـى الشخص بالقصور والعجز عن مباشرة هذه الحقوق ، وعن تحمل هذه الالتزامات .

قضية الرق :

أُلغي الرق حديثًا باتفاق دولي ، وبعد هذا الإلغاء المحدث كثر الكلام واتسع النقد للإسلام .. يعني أنه إذا كان الإسلام يهدف إلى الحرية والمساواة بين الناس في جميع الحقوق ، فلماذا لم يلغ الرق من أول الأمر حتى يتم له هذا الهدف ؟

وحتى نستطيع تصور الملابسات التي اتصلت بهذا الموضوع ينبغي لنا أن نعرف أنه ليس هناك دين ولا قانون سبق الإسلام في تحريم هذا الرق ، أي أن الشريعة اليهودية لم تحرمه ، بل قسمت

البشر إلى قسمين : بنو إسرائيل قسم ، وسائر البشر قسم آخــر ، وأباحت استرقاق غير الإسرائيليين إلى الأبد ، لأنهم سلالات كتب عليها الذلة من الأزل ، أما المسيحية فلم يرد فيها نــص واحــد يستنكره أو يحرمه ، بل إن رسائل الرسل كانت توصي بإخلاص العبيد في خدمة سادتهم .

أما الدول قبل الإسلام فقد كانت معاملاتها قائمة على اعتبار رعايا الدول الأخرى غنيمة تستولي علــيهم متــى اســتطاعت ، تسترق من تشاء ، وتبيع من تشاء .

ويروى في هذا أن " أفلاطون " الفيلسوف اليوناني قد جــرى عليه الرق في إحدى رحلاتــه ، وأن " عمــر بــن الخطــاب " رضي الله عنه قد استرقه قبل الإسلام شخص في إحدى رحلاته إلــى الشام ، فاستسلم له " عمر " ابتداء حتى تمكن من الانفراد به فقتله

ولقد كان يحيط بالعرب دولتان كبيرتــان لهمــا حضــارة ، وفيهما علم وفي إحداهما ميراث زاخر من الفلسفة والحكمة وهما دولتا الروم والفرس ، ولقد كان قانون الرومان – الذي مازالــت بعض قوانينه مقدسة عند أوروبا حتى الآن – يعطــي للأشــراف

الرومان حقوقًا ليست لغيرهم ممن هم في ظل الحكم الروماني ، فالعبيد لا يعاملون معاملة الآدميين ، فليس على السيد مسئولية فيما يفعل مع عبده ، حتى إن قتله فلا تبعة عليه ، وجريمة العبد تضاعف لها العقوبة ، وجريمة الروماني يخفف فيها العقاب ، والدائنون لهم حق استرقاق المدينين إن عجزوا عن الوفاء .

أما الفرس فقد كان الحكم للأشراف خاصة وما كان هناك دين سماوي أو أخلاق سائدة تحمي من الظلم والاستعباد .

والخلاصة :

أن الإسلام قد ظهر في عصر كان نظام الرق فيه شرعًا سائدًا ، وعرفًا دوليًا قائمًا ، وكانت منابعه كثيرة ، ومنافذه قليلة ، وكانت أهم روافده سبعة :

١ – الحرب بجميع أنواعها .

٢ – الخطف والسبي .

٣ – ارتكاب بعض الجرائم كالقتل والسرقة .

٤ – عجز المدينين عن السداد .

٥ – سلطة الوالد على أولاده ، فله أن يبيع من يشاء بيع الأرقاء .
٦ – سلطة الشخص على نفسه ، فله أن يتنازل عن حريته لقاء ثمن معين .
٧ – تناسل الأرقاء .

فلما جاء الإسلام حرم كل هذه الروافد ، ولم يبق منها سوى رافدين اثنين هما : رق الوراثة ، ورق الحرب ، بل إنه قد وضع على هذين الرافدين من القيود ما يكفل نضوب معينهما :

فقيّد النوع الأول : بأن لا يكون تناسل بين جارية وسيدها .

وقيّد النوع الثاني : بأن تكون الحرب شرعية غير أهلية ، والحرب الشرعية – كما بيّنا فيما سبق – حدودها ضيقة ، كما أجاز الإسلام في أرقائها المن والفداء ، بل إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة جاء فيهما عشرات الأوامر بالعتق والإحسان والمن والفداء ، قال تعالى : ﴿ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾

---

(١) سورة محمد – جزء من الآية ٤ .

فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾[1] ، ووصى بالإحسان إلى الأسرى فقال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾[2] ، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي عن الله ﷻ : « ﴿ ثَلاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ ، وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ ﴾ »[3] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أَطْعِمُوا الْجَائِعَ ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ ، وَفُكُّوا الْعَانِيَ »[4] .

وتاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم في غزواته يشهد بهذه الروح التي تهدف إلى حرية العبيد ، ففي " بدر " قبل المسلمون الفداء ، وفي " الفتح " عفا عن أهل مكة وهو قادر على الانتقام منهم ، وفي " بني المصطلق " تزوج النبي صلى الله عليه وسلم أسيرة من هذا

---

(١) سورة البلد – الآيتان ١٢ ، ١٣ .
(٢) سورة الإنسان – الآية ٨ .
(٣) أخرجه البخاري – كتاب البيوع – باب إثم من باع حرا – حديث رقم ٢٢٢٧ .
(٤) أخرجه البخاري – كتاب الأطعمة – باب قول الله تعالى : ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ – حديث رقم ٥٣٧٣ .

الحي ليرفع مكانته ، فتحرج المسلمون من استرقاق الأصهار الجدد .

والقاعدة الفقهية المشهورة : " **الشرع يتشوف إلى الحرية** " ، وقد بلغت حدًا من المحافظة عليها لدرجة جعلت بعض الفقهاء يحكم بنسب الولد إلى أب كافر حر ويرفض الحكم عليه بأنه عبد مسلم .

فماذا ينتظر أعداء الإسلام منه أن يفعل أكثر من ذلك ؟ هل كانوا يريدون منه ألا يسترق أعداءه على حين أنهم يسترقون أبناءه ؟!

منافذ الشرع لتحرير العبيد :

إن الإسلام لم يلغ الرق لأن أعداءه لا يستجيبون لذلك فكانت المعاملة بالمثل .. ومع هذا فقد وضع في تشريعاته منافذ كثيرة لو سارت في طريقها الصحيح عبر التاريخ لانتهى الرق من زمن بعيد ، منها أن العتق يلزم باللفظ ولو مزاحًا ، كذلك التدبير ، ومنها أن السيد إذا أتى من جاريته بولد عتقت عليه ، ومنها نظام المكاتبة الذي يبيح فيه السيد لعبده أن يتاجر ويعمل حتى يوفيه ثمنه ، وقد حث الإسلام على مساعدته ، بل جعل له نصيبًا من

مصارف الزكاة في كل عام ، قال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾[١] ، ومنها نظام الكفارات ، فالقاتل خطأ عليه أن يعتق رقبة ، والحانث في يمينه عليه أن يعتق رقبة ، والمظاهر من زوجته عليه أن يعتق رقبة ، هذه كفارات مفروضة .

وهناك عتق مرغوب فيه تطوعًا بلا إيجاب من الشرع .. قال صلى الله عليه وسلم : « **مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً ، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ** »[٢] ، وفضلاً عن كل ذلك فإن الإسلام قد ضمن لهم معاملة كريمة مع سادتهم .. قال صلى الله عليه وسلم : « **مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أَوْ ضَرَبَهُ فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ** »[٣] ، وكان من آخر وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « **اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** »[٤] .

---

(١) سورة التوبة – جزء من الآية ٦٠ .
(٢) أخرجه البخاري – كتاب كفارات الأيمان – باب قول الله : ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ وأي الرقاب أزكى – حديث رقم ٦٧١٥ .
(٣) أخرجه أبو داود – كتاب الأدب – باب في حق المملوك – حديث رقم ٥١٦٨ .
(٤) أخرجه أبو داود – كتاب الأدب – باب في حق المملوك – حديث رقم ٥١٥٦ .

ومن توجيهاته النبوية ألا يقول السيد لمملوكه : يا عبدي ، ولا : يا أمتي ، بل : يا فتاي ويا فتاتي . ومن مآثره صلى الله عليه وسلم أنه جعل العبيد إخوة لسادتهم ، فقال : « **إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ** »(١) .

ولقد طبق صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبيدهم مبدأ هذا الإخاء ، فلقد وعى سمع التاريخ وهو مطأطئ الرأس إكبارًا عن سيدنا " عمر بن الخطاب " وهو ذاهب إلى الشام لعقد المعاهدة مع أهل بيت المقدس بعد انتصار المسلمين أنه كان معه غلامه ولم يكن معهما سوى ناقة واحدة ، وتنفيذًا لمبدأ الإخاء كان أمير المؤمنين المنتصر يتعاقب الركوب مع غلامه على الناقة .. وإمعانًا في إظهار تلك الأخوة والعدالة والمساواة كان الدور حين دخول المدينة للغلام فما استنكف " عمر " أن يدخل المدينة ماشيًا وغلامه راكب .

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب العتق – باب قول النبي العبيد : " إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون – حديث رقم ٢٥٤٥ .

إنها عظمة الإسلام تتجلى على رءوس الأشهاد تدمغ أباطيل الحاقدين وأكاذيب الناقمين .

عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ : دَخَلْنَا عَلَى أَبِي ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ فإذَا عَلَيْهِ بُرْدٌ وَعَلَى غُلَامِهِ مِثْلُهُ فَقُلْنَا : يَا أَبَا ذَرٍّ لَوْ أَخَذْتَ بُرْدَ غُلَامِكَ إِلَى بُرْدِكَ فَكَانَتْ حُلَّةً وَكَسَوْتَهُ ثَوْباً غَيْرَهُ ؟ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُـولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « **إِخْوَانُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيَكْسُهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا يُكَلِّفْهُ مَا يَغْلِبُهُ فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ** »[1] .

بل إن الإسلام قد بلغ الذروة في إبراز كيان الرقيق فأباح لهم أن يكونوا أسرة بالمعنى القانوني السليم ، بل إن حق القود والقصاص قد أعطاه لهم الإسلام ، ولو كان مع حر بل ولو كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن أم سلمة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي ، وكان بيده سواك ، فدعا وصيفة لي فلم ترد عليه حتى استبان

(١)أخرجه أبو داود – كتاب الأدب – باب في حق المملوك – حديث رقم ٥١٥٨ .

الغضب في وجهه ، فخرجت إلى الحجـرات فوجدتها تلعـب ، فقلت : أراك تلعبين ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك ! فقالـت : لا والذي بعثه بالحق ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " **لولا خشية القود لأوجعتك بهذا السواك** "[١] .

الحرية السياسية

وهي تعني حق الإنسان في ولاية الوظـائف الإداريـة فـي الدولة إذا كان كفئًا لها ، وهي تعني كذلك حقه في إبداء رأيه في سير الأمور العامة ، وهي بشقيها تعني أن الحكم وسيلة لخدمـة المجتمع ، لا وسيلة للسيطرة عليه .. أي أن الحاكم خادم للأمة في تحقيق مصالحها وآمالها ، والإسلام لا يتصور حكمًا .. يسير على منهجه .. يحيد عن هذه الحرية بشقيها قيـد أنملـة .. ذلـك أن الإسلام يعتبر الخلافة الصحيحة ما كانت نتيجـة لانتخـاب حـر وبيعة عامة للأكفأ والأجدر بتولي هذا المنصب الخطير ؛ ضرورة

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد .

أن نبيّه العظيم قد انتقل إلى الرفيق الأعلى وترك الأمر شـورى بين المسلمين .

بل إن الإسلام قد ذهب إلى أبعد من ذلك حين فرض على الرئيس أن يستشير المرءوس في مهمات الأمور ، قال تعالى مخاطبًا نبيّه المعصوم : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[1] ، وقال تعالى في صفة المؤمنين : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[2] .

ولقد وقف الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة أُحد يرسي دعائم الحكم الشورى ، ويسمع التاريخ قواعد الديمقراطية السليمة من خلال سياسته العملية فيها .

لما علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن قريشًا قد زحفت بجيوشها من مكة إلى المدينة جمع أصحابه يستشيرهم في الأمر ، وبدأ حديثه معهم بقوله : " **إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث**

---

(١) سورة آل عمران – جزء من الآية ١٥٩ .
(٢) سورة الشورى – جزء من الآية ٣٨ .

نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هـم دخلـوا علينـا قاتلناهم فيها " ومع هذا الرأي الصريح الـذي أبـداه الرسـول صلى الله عليه وسلم ، ومع حرص الصحابة على تنفيذ أوامرة .. مع كل هذا ينفسح المجال في الجو الإسلامي الصحيح للتناقش والشورى ، وينقسم المجلس إلى فريقين : فريق مـع الرسـول صلى الله عليه وسلم ويمثله معظم المهاجرين وبعض زعماء الأنصار ، وفريق آخـر يمثله شباب الأنصار المتحمس وبعض المهاجرين . قال بعضهم : يا رسول الله ، إنا كنا نتمنى هذا اليوم ، اخرج بنا إلى أعـدائنا لا يروا أنا جبنًا وضعُفنا .. وقال آخرون : إنا لا نحب يا رسول الله أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون : حصرنا محمدًا في صياصي يثرب وآطامها ، فتكون هذه مجرئة لقريش ، وهـاهم أولاء قـد وطئوا سعفنا فإذا لم نذب عن حوضنا لم يرع .

وهكذا احتد النقاش وأدلى كل بحجتـه والجميـع لا ينقصـه الإخلاص ، ولو شئنا أن نقارن بين وجهات النظر لوجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم على رأي أحكم وأصوب ، إذ رأى أن جيش مكـة ليس كله من قريش ، ولكن من أحلاف مستأجرين كالأحـابيش ،

فلن يلبثوا أن يدب الخلاف بينهم ويعودوا ، فإن دخلوا المدينة دافع عنها الرجال والنساء والأطفال ، ولكن رســول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى الأكثرية تؤيد رأي الخروج لم يشأ أن يهدم قاعدة الحكــم الشورى لئلا تكون نواة للدكتاتورية الفردية ، إذ هو نبراس وقدوة لجند الإسلام إلى أن يأذن الله تعالى للعــالم بالفنــاء .. وصــلى الجمعة ودخل منزله وليس لأمة الحرب .. وبينما هو يتجهز كانت صفوف المسلمين متراصة .. فــأحس بعضــهم أنهــم أســاءوا التصرف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : استكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج فردوا الأمر إليه .. وهنــا يقــرر الرسول صلى الله عليه وسلم مبدأ آخر من مبــادئ الشــورى : مــادام المجلس قد قرر رأيًا وانفض فلا يجوز العدول عنه بأية حال حتى لا يؤدي إلى اضطراب الأمر ، وفتور العزائم ، وضعف الهمم ، وبالتالي إلى الفشل .. لذلك يرد الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم قائلاً : **" ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكــم الله بينــه وبين عدوه "**(١) .

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .

ويؤكد التطبيق الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين هذه الحقيقة التي تعتبر الأمة مصدر السلطات ، قال " عمر " : " لوددت أنـي وإياكم في سفينة تذهب بنا شرقًا وغربًا فلن يعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم ، فإن استقام اتبعوه ، وإن جنف قتلوه " ، فقال طلحة : وما عليك لو قلت : وإن تعوج عزلوه ، فقـال " عمـر " : " لا : القتل أنكل لمن بعده " ، وكتب لأبي موسى الأشعري واليه علـى الكوفة : " يا أبا موسى ، إنما أنت واحد من الناس غيـر أن الله جعلك أثقلهم حملاً .. إن من ولي أمر المسلمين يجب عليـه مـا يجب على العبد لسيده " .

وقال " أبو بكر " حين ولي الخلافة : " يا أيها النـاس ، قـد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم " .

وقال " عثمان بن عفان " : " إني أتوب وأنـزع ولا أعـود لشيء عابه المسلمون ، فإذا نزلت عن منبري فليـأتني أشـرافكم فليروني رأيهم ، فوالله إن ردني الحق عبدًا لأذلن ذل العبيد " .

الفرق بين الشورى والديمقراطية

بيد أنه يجب التنبيه إلى أن هناك فرقًا بين النظـرة الحديثـة للديمقراطية ، وبين نظرة الإسلام .. فإنه ليس للشعب في عـرف الإسلام ولو بأكثرية وغالبية أن يلغي حدًا من حدود الله تعـالى ، أو أن يعدل بعض قوانين الإسلام إلا أن يجـد لـه سـندًا مـن النصوص ، بحكم أن الدستور الإسلامي ليس من وضع البشـر ، حتى يعدلوا فيه ما شاءوا ، ولكنه من وحي الله تعـالى الـذي لا تخطئه المصلحة ، أي أنه لو تعارضت ظاهريًا مصلحة مع النص فالمقدم النص ، والشك في النظر إلى المصـلحة ، إذ محـال أن يكون في الإسلام تعارض حقيقي بين المصلحة الحقيقية والـنص القطعي ، والحق حق ولو خالفه الجميع ، والباطل باطل ولو قدسه الجميع ، قال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنعام – جزء من الآية ١١٦ .

هذا فيما يتعلق بالشطر الأول من هذه الحريــة .. والأدلــة واضحة في أن الحاكم خادم للأمة ، مختار منها ، مؤتمر بأمرها ، خاضع لمشورتها ، وهو أكفؤها ، وموضع ثقتها .. أمــا الشــطر الثاني وهو النقد ، فإن الإسلام لا يعبر عنه بأنه حريــة ، ولكنــه داخل في مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عــن المنكــر ، وهمــا فريضة على المسلمين ، بل إن نقد الحاكم الظالم يسمو إلى مرتبة أفضل من الجهاد .

ولقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم لا يخشون في الحق لومة لائم .. وما كانوا يخافون من قول الحق جهارًا نهارًا أمام الحاكم مهما كانت قوته وبأسه .

رأى " عمر بن الخطاب " أثناء خلافته رجلاً وامــرأة علــى فاحشة فجمع الناس وقام فيهم خطيبًا وقال : " ما قولكم أيها الناس لو رأى أمير المؤمنين رجلاً وامرأة على فاحشة ؟ " ، فقام " علي " فأجابه بقوله : يأتي أمير المؤمنين بأربعة شهداء أو يجلــد حــد القذف شأنه في ذلك شأن سائر المسلمين ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ

يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾[١] فسكت " عمر " ولم يعيّن شخصي المجرمين .

وقال رجل من المسلمين لـــ " عمر " : اتق الله ! فاســتنكر عليه أحد الحاضرين ، فغضب " عمر " وقال : " ألا فلتقولوها .. لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نسمعها " .

حرية التنقل وحق الهجرة واللجوء

هذا الفرع من الحرية ما اضطرت هيئة الأمم المتحدة للتنبيه عليه إلا نتيجة للأوضاع المستحدثة في نظم الدول بعد انهيار نظام الخلافة الإسلامية ، فقد كانت بلاد المسلمين كلها وطنًا واحــدًا ، لها جنسية واحدة هي الإسلام ، ولا يحظر على إنسان يتنقل مــن بلد إلى بلد ، فهو مــأمور بــذلك .. قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ

---

(١) سورة النور – جزء من الآية ٤ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١] ، وله أن يقيم حيث يطيب له المقام ، ولا يتصور أن يفرض الإسلام على حرية التنقل والإقامة قيودًا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه قد هاجر وانتقل من مكة إلى المدينة ، وأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة قائلاً لهم : " **تفرقوا في الأرض إن الله سيجمعكم** " .. بل إن قرآنه يفرض الهجرة في سبيل الله تعالى وترك الأرض التي يشعر فيها المسلم باستضعاف وذلة ، بحيث لو لم يهاجر مع استطاعته كان آثمًا ، فإذا ما هاجر وكانت وجهته الحفاظ على دينه وعقيدته ، فإن الله تعالى يعده على ذلك أن يهيئ له سبيل الراحة والسعادة في مهجره الجديد .. قال تعالى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ ﴾[٢] .

---

(١) سورة العنكبوت – الآية ٢٠ .
(٢) سورة النساء – جزء من الآية ١٠٠ .

وروى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : مَاتَ رَجُلٌ بِالْمَدِينَةِ مِمَّنْ وُلِدَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ قَالَ : « **يَا لَيْتَهُ مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ** » قَالُوا : وَلِمَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « **إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ فِي الْجَنَّةِ** »[1] .

وطبيعي أن الإسلام الذي يفرض الهجرة على المضطهد يفتح صدره مرحبًا بالمضطهدين من دول أخرى شريطة ألا يكونوا مجرمين أو مفسدين ، ومن هنا يتبيّن حكم الإسلام في الهجرة واللجوء السياسي للمضطهد .. وقد طبق ذلك في ظل الحكم الإسلامي على أن من حق الإمام أن يعطي الأمان للوافد على بلد الإسلام ، ولو كان مشركًا استجابة لقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾[2] .. بل إن الإسلام ليوسع الدائرة ويعطي هذا الحق

---

(١) أخرجه النسائي – كتاب الجنائز – باب الموت بغير مولده – حديث رقم ١٨٣٢ .

(٢) سورة التوبة – جزء من الآية ٦ .

لكل مسلم .. قال صلى الله عليه وسلم : « **الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ** »[١] .

حق الكرامة

الكرامة حق لكل إنسان من ذكر وأنثى ، وهذا ثابت وممنوح له من الخالق جل علاه ، فهو الذي فضله على كثير من خلق الله تعالى ، وقد أشير إلى كل ذلك في بدء هذا البحث .

ومن مقتضى هذه الكرامة مراعاة حرمته في دمه وماله وعرضه ، ولقد بلغ الإسلام مبلغ التغليظ والتأكيد لدرجة جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحيّن فرصة الاجتماع الضخم في يوم الحج الأكبر وفي وصايا الوداع ليعبر عنها أمام الملأ بأسلوب فريد في تنبيه الأذهان ، وتذكير العقول ، وتوعية النفوس .. قال لهم صلى الله عليه وسلم : « **أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟** » . قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ

---

(١) أخرجه أبو داود – كتاب الجهاد – باب في السرية ترد على أهل العسكر – حديث رقم ٢٧٥١ .

أعلَمُ . فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ . قَـالَ : « **أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟** » . قُلْنَا : بَلَى . قَالَ : « **أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟** » . قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ . فَقَالَ : « **أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ ؟** » . قُلْنَا : بَلَى . قَالَ : « **أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟** » قُلْنَـا : اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَعْلَمُ . فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْـمِهِ . قَالَ : « **أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ ؟** » . قُلْنَا : بَلَى . قَالَ : « **فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ . أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ** » . قَـالُوا : نَعَمْ . قَـالَ : « **اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ ، فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ** »[١] .

وإضافة إلى ما سبق من نصوص تؤكد حـق الحيـاة نجـد الإسلام يحذر من الاعتداء على هذه الحرمة في عديد من النصوص التي تحمل معنى التغليظ ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا**

---

(١) أخرجـه البخاري – كتـاب الحج – باب الخطبـة أيام منـى – حـديث رقم ١٧٤١ .

فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[١] .

ووقف الرسول صلى الله عليه وسلم أمام الكعبة العظيمة وقال : **« مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ مَالِهِ وَدَمِهِ وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلاَّ خَيْراً »**[٢] .

وإذا كانت هذه النصوص تؤكد هذه الحرمة بالنسبة للمسلم ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكدها كذلك بالنسبة لغير المسلم المسالم .. قال صلى الله عليه وسلم : **« مَنْ قَتَلَ مُعَاهَداً لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ »**[٣] ، وقال صلى الله عليه وسلم : **« مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَمْ يَجِدْ رِيحَ الْجَنَّةِ »**[٤] .

---

(١) سورة النساء – الآية ٩٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجه – كتاب الفتن – باب حرمة دم المؤمن وماله – حديث رقم ٣٩٣٢ .

(٣) أخرجه البخاري – كتاب الجزية – باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم – حديث رقم ٣١٦٦ .

(٤) أخرجه النسائي – كتاب القسامة – باب تعظيم قتل المعاهد – حديث =

ومن مقتضى هذه الكرامة كذلك أن يحترم شرفه وسمعته ، فلا يجوز التجني عليه وإشاعة الفاحشة عنه في المجتمع ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾[1] ، ومن أجل هذه الحرمة ، ولقطع ألسنة السوء ، أمر الإسلام ألا يكتفي في البيّنة على القذف بشهادة رجلين مع أنه يكتفى في القتل بهما ، بل جعل الشهادة التي تثبت هذا القذف أربعة من الرجال المؤمنين العادلين ، فإن لم يأت القاذف بهذا العدد من الشهود كان هو الفاسق وأقيم عليه الحد ثمانين جلدة ، وسقطت عدالته من المجتمع ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[2]

= رقم ٤١٧٥٠ .

(١) سورة النور – جزء من الآية ١٩ .

(٢) سورة النور – الآية ٤ .

المحافظة على المشاعر والأحاسيس :

ومن مقتضى هذه الكرامة أيضًا ألا يجرح مشاعر أخيه وإحساساته ، فليس لأحد أن يسب أحدًا أو يشتمه أو يحقره ، قال صلى الله عليه وسلم : « **بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ** »(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « **سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ** »(٢) ، بل إن النظرة أو الإشارة التي يشم منها رائحة السخرية والتهكم حرام ، قال تعالى : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ**

---

(١) أخرجه مسلم – كتاب البر والصلة – باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله – حديث رقم ٦٧٠٦ .

(٢) أخرجه البخاري – كتاب الإيمان – باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر – حديث رقم ٤٨ .
وأخرجه مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم : « **سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ** » – حديث رقم ٢٣٠ .

ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[١] .

ولقد ذهب الإسلام إلى حد بعيد في المحافظة على شعور الإنسان والإبقاء على حبل المودة والمحبة ، فنهى صلى الله عليه وسلم عن مجرد فتح أية ثغرة قد يشم منها الصديق رائحة الإهمال وعدم الاكتراث .. قال صلى الله عليه وسلم : « **إذَا كُنتُمْ ثلاثةً فَلاَ يَتَنَاجَى رَجُلاَنِ دُونَ الآخرِ ، حَتَّى تَخْتَلِطُوا بالنَّاسِ ، أجْلَ أنْ يُحْزِنَهُ** »[٢] .. بل ندب الإسلام للمسلم أن يغتسل ويتنظف ويتطيب عند الاجتماع بإخوانه في صلاة الجمعة حتى لا يؤذيهم برائحة العرق .

ومن مقتضى هذه الكرامة كذلك ألا يعتقل إنسان أو يُحبس أو يُعزَّر أو يُعذَّب أو يُهان أو يُروَّع أو يُخوَّف في غير حق شرعي مستند إلى قوانين الإسلام .. إنه فيما عدا التعزيز المباح شرعًا للحاكم حين يرتكب الفرد ما يوجبه لا حق للحاكم في الاعتقال أو الحبس أو التعذيب أو الإهانة ..

---

(١) سورة الحجرات – الآية ١١ .
(٢) أخرجه البخاري – كتاب الاستئذان – باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة – حديث رقم ٦٢٩٠ .

قال صلى الله عليه وسلم : « **لاَ يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلاَحِ ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِى لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِى يَدِهِ ، فَيَقَعُ فِى حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ** »[1] .. وليس ذلك مختصًا بالمسلم كذلك ، فإن تعـذيب غير المسلم لـه نفـس الحكم ، مادام ذميًا أو معاهدًا أو مؤمَّنًا .. فله حق الحياة الآمنـة التي تشيع في أكنافها الطمأنينة .

حدث زيد بن سعنة وهو من أحبار اليهود أنه أقرض النبـي صلى الله عليه وسلم قرضًا كان محتاجًا إليه ليسد به خللاً في شئون نفر من المؤلفة قلوبهم .. ثم رأى أن يذهب قبل موعد الوفاء ليطالبـه بالدين ، قال : أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليـه بوجه غليظ ، قلت له : يا محمد ألا تقضيني حقي ؟ فـوالله مـا علمتكم بني عبد المطلب إلا مُطْلاً ، ولقـد كان لـي بمخـالطتكم علم .. ونظر إليّ " عمر " وعيناه تدوران فـي وجهـه كالفلـك المستدير ، ثم رماني ببصره وقال : يا عدو الله ، أتقول لرسـول الله صلى الله عليه وسلم ما أسمع وتصنع به ما أرى ؟ فوالذي نفسي بيده

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الفتن – باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « **مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا** » – حديث رقم ٧٠٧٢ .

لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا عمر ، أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا .. أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن اتباعه .. اذهب به يا عمر فأعطه وزده عشرين صاعًا من تمر مكان ما روعته " ، ففعل " عمر " .

هكذا يعطي الرسول صلى الله عليه وسلم عوضًا ليهودي رُوِّع من " عمر " بعد أن أساء الأدب في معرض الطلب .

مراعاة حرمة البيوت :

ومن مقتضى هذه الكرامة أيضًا مراعاة حرمة البيت والأسرة ، فلا يحل لأحد أن يتهجم على المسكن ، أو أن يدخل البيت بغير إذن صاحبه ، أو يتجسس على من فيه من الخارج ، أو يتبصص من ثقب فيه على من فيه .. قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾[2] بل إن من أدب

---

(١) سورة النور – جزء من الآية ٢٧ .
(٢) سورة الحجرات – جزء من الآية ١٢ .

الإسلام ألا يأتي الإنسان بيت أخيه مواجهة حتى لا يكشف عورة عند فتح الباب .

ومن مقتضى هذه الكرامة ألا يعتدي على حرمته في نفسه بتفتيشه أو فتح مراسلاته إلا إذا كان بوجه حق ، وكان في سلوكه ما يريب .. فلقد مضى تاريخ الإسلام على أن الرسائل تختم بالخاتم حتى لا يتلاعب بها أحد .. ولقد نظم سيدنا " عمر " مرفق البريد تنظيمًا حضاريًا صار المنظمون من بعده عالة عليه .

حق العدالة

إن العدالة حين تسود مجتمعًا تنصرف كل طاقاته إلى العمل المثمر والنتاج الصالح في جو من الاطمئنان على وصول كل حق إلى أربابه الشرعيين دون جور أو إجحاف .

ومن أجل ذلك أعطى الإسلام لكل إنسان حقه في التمتع بظلال هذه العدالة .. ورسم القرآن الكريم مناهج تحقيقها ، والقرآن الكريم حينما يحدد ذلك – وهو من الله تعالى وتسري أحكامه على الحاكم والمحكوم – فإنه لا يتأتى معه استبداد ولا

ظلم ، فالاستبداد يأتي حين يكون هوى الحاكم هو القانون : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[١] .

ولقد أمر القرآن الكريم بالعدالة مع الوالدين والأقربين .. ومع الأعداء والمخالفين على السواء ، بل أمر بها مع نفس الإنسان : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[٢] .

وأمر بها مع اليهود وبني إسرائيل المسالمين .. قال تعالى : ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) سورة يونس – الآية ٤٤ .
(٢) سورة النساء – الآية ١٣٥ .

يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[1]

وأمر بها الحاكم والمحكوم : كتب " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه عنه منشورًا إلى الناس يقول فيه : " إني لم أبعث عمالي ليضربوا جلودكم ولا ليأخذوا أموالكم ، فمن فعل ذلك فليرفعه إليّ لنقتص منه " ، فقال " عمرو بن العاص " : لو أن رجلاً أدب بعض رعيته أتقصّنّ منه ؟ قال " عمر " : " إي والذي نفسي بيده لأقصن منه ، وقد رأيت رسول الله يقّص من نفسه " .

وكان " جبلة بن الأيهم " سيدًا وأميرًا في الجاهلية – وكان نصرانيًا فأسلم – وطاف بالكعبة يومًا ، فزاحمه أعرابي من العامة ، وداس ثوبه غير قاصد ، فاستشاط الأمير غيظًا ، ولطم الأعرابي على وجهه ، ورفعت القضية إلى " عمر " فأمر بالقصاص إلا أن يعفو الأعرابي .. فقال " جبلة " : كيف وهو سوقة وأنا ملك ؟ فقال " عمر " : إن الإسلام سوى بينكما ، فطلب الأمير مهلة فرّ في أثنائها على أرض الرومان راجعًا إلى النصرانية .

(١) سورة المائدة – جزء من الآية ٤٢ .

ولقد بلغ الإسلام حدًّا من العدالة لم يبلغها ولن يبلغها قانون سواه ، ورد عن بعض الفقهاء : " إذا بعث الحربي عبدًا له متاجرًا إلى دار الإسلام بأمان فأسلم العبد بعد دخوله دار الإسلام بيع ، وكان ثمنه للحربي مالكه " .. هكذا تصل عدالة الإسلام إلى حد يحتفظ فيه بحق الحربي في ثمن العبد الذي أسلم .

المتهم بريء حتى تثبت إدانته :

وانطلاقًا من هذه العدالة التي بلغت هذا الحد من السمو لا يمكن أن يعتبر شخص مدينًا بدون ثبوت الدعوى عليه ، بل إن الإسلام – الذي يعتبر من اتهم بالزنا بريئًا حتى يشهد عليه أربعة عدول ، بحيث إذا نقص هذا العدد اعتبر المدعي والشهود فسقة ، واعتبر المتهم بريئًا – إن هذا الإسلام لا يمكن أن يجيز لأي سلطة أن تعامل أي متهم معاملة المجرم قبل ثبوت الدعوى عليه .

كما أن الإسلام قد أعطى للعامل حرية في اختيار نوع العمل الذي يتناسب مع مقدرته ومواهبه ، فلا يُحكَم على إنسان بعمل معين ، أو يعاقب على تركه إلا إذا ترتب على هذا العمل أو

الترك مضرة عامة ، أو حدث من جرائه خلل ، أو تضارب مع مصلحة الجماعة ، فالقاعدة الإسلامية : « **لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ** » .

كما أنه لا يتأتى في جو الإسلام أن يضيع حق أو تنظر قضية بغير نزاهة وتحرٍّ وتدقيق ، فإن الإسلام يستغرق في تفاصيله أحوال القاضي : من **غضبه ورضاه** ، **وضيق نفسه وانبساطها** ، فلا يجيز له أن يحكم في قضية ما وهو غاضب ، أو جائع ، أو قلق ، أو مشغول .

ميزان العدالة :

كما أن الإسلام يضع في ضمير المسلم ميزانًا للعدالة بينه وبين الله من الخشية والتقوى ومراقبته تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم : « **إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً بِقَوْلِهِ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا** »[١] ، ويشير القرآن الكريم إلى هذا الميزان الدقيق

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الشهادات – باب من أقام البيّنة بعد اليمين – حديث رقم ٢٦٨٠ .

فيقول : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١] .

حق الملكية

من الحقوق المقررة في الإسلام حق الملكية الفردية ؛ إذ هو يتعلق بغريزة حب التملك المركوزة في الطبائع البشرية ، والإسلام يهذب هذه الغرائز ولا يكبتها ، ويوجهها ولا يحاربها ، غاية ما هنالك أن يكون هذا التملك من أبواب مشروعة ، ومن طريق حلال ، فإذا كان كذلك كانت حرمته في الإسلام حرمة الأعراض التي يدافع عنها المرء حتى آخر رمق في الحياة ، وقد مرت نصوص كثيرة تؤكد هذا ، قال صلى الله عليه وسلم : « **لاَ يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ** »[٢] .

---

(١) سورة البقرة – الآية ١٨٨ .
(٢) أخرجه الدارقطني – كتاب البيوع – باب (١) – حديث رقم ٢٩٢٤ .

إن تملك المال ليس مباحًا في نظر الإسلام فقط ، لكنه أمر مرغوب فيه ، مطالب به ، ولا يتنافى تملكه مع الورع والتقوى والزهد .. قال صلى الله عليه وسلم : « يَا عَمْرُو نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ »(١) ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو بهذا الدعاء : « اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى »(٢) .

إن المال عصب الحياة وقيام الناس ، ولا يعقل أن يذم الإسلام ما به قيام الناس ، بل إنه لينهى عن الإهمال فيه وإعطائه للسفهاء ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾(٣) .

والإسلام حين يعطي الإنسان هذا الحق فإنه بذلك يحفز الهمم لتثميره ، وتنميته ، والانتفاع به في حدود ما شرع .

لقد أباح التملك والانتفاع الكامل بثمرة العمل فقال

---

(١) أخرجه أحمد – حديث عمرو بن العاص – حديث رقم ١٨٢٣٦ .
(٢) أخرجه مسلم – كتاب الذكر والدعاء – باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل – حديث رقم ٧٠٧٩ .
(٣) سورة النساء – جزء من الآية ٥ .

صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ »[١] ، ولقد ترك كثير من الصحابة أموالاً طائلة بعد الموت .

وقد وضع الإسلام نظام المواريث بحكمة ودقة وعدالة تحول دون الاختلاف والشقاق بين الوارثين ، عكس ما يحدث عند بعض أنظمة الغرب التي تنقل جميع الثروة أو معظمها إلى الولد البكر .

ويحرم معظم الفقهاء أن يوصي المالك لأي وارث استنادًا إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ »[٢] ، كما يحرم الإسلام أن يوصي المالك لغير ورثته إلا في حدود الثلث من التركة ، وذلك بعكس ما يجري في بعض نظم الغرب التي تجعل المالك حرًا في التصرف ، بحيث يحق له أن يوصي بتركته كلها لمن يشاء ، مما أثار حفيظة أصحاب الحق الشرعي ، وخلق تفاوتًا ضخمًا بين الناس ، وفتح أبوابًا واسعة للمذاهب المتطرفة الهدامة التي اعتمدت على الثورات والانقلابات العنيفة التي سادت

---

(١) أخرجه مالك – كتاب الأقضية – باب القضاء في عمارة الموات – حديث رقم ١٤٢٧ .

(٢) أخرجه البخاري – كتاب الوصايا .

أوروبا في العصور الحديثة .

فلو لم يكن للملك مكانته المحترمة في الإسلام فكيف يفسر اهتمامه الشديد بتنظيم ثرواته وتداولها ؟!

إن حق الملكية الفردية له من الحرمة والحماية ما يجعله أصلاً وأساسًا لبناء النظام السليم لاقتصاديات الأمة التي تسير على هدى الإسلام .

بيد أن كل مالك في عرف الإسلام مسئول عن تصريف ماله حسب أوامر الشرع وتعاليمه ، أي أنه مسئول عن هذا المال من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ ومسئول عن أداء الواجبات الاجتماعية المفروضة فيه من قبل الخالق ، ومسئول عن كل تصرف سيء يخل بأغراض الشرع الحنيف .

والإسلام بعد هذا يضع لهذا الحق من الحفظ والرعاية ما يجعله يفرض أقسى العقوبات على من يعتدي على حرمته بسلب أو نهب أو اختلاس أو قطع طريق ، ففرض قطع يد السارق ، قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا

نَكَـٰلاً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١] .

وفرض القتل أو الصلب أو النفي أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف لقطاع الطريق الذين يرهبون الناس بالاعتداء على حرمات أموالهم وأعراضهم ودمائهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[٢] .

حق التكافل الاجتماعي

للإسلام نظام فريد متكامل يخلق الجو الصحيح للمودة المتبادلة بين أفراد المجتمع ، ويستعمل المال وسيلة لتحقيق هذا

---

(١) سورة المائدة – الآية ٣٨ .
(٢) سورة المائدة – الآية ٣٣ .

الهدف ، ولضمان مستوى معيشي لائق بكرامة الإنسان ، ولـذلك نراه حريصًا على تكافؤ الفرص وحماية المجتمع مـن البطالـة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة .

إن الفرد الذي أصيب بعاهة تمنعه من أداء العمل وليس لديه من المال ما يكفل له المعيشة الطيبة ، وإن الضـعيف الـذي لا تمكنه طاقاته من اكتساب أجر يضمن له تلك الحيـاة المناسـبة ، وإن اليتيم الذي فقد أباه وليس لديه ما يساعده على التربية السليمة حتى ينتفع المجتمع من مواهبه وطاقاته ، وإن الأرمل التي فقدت زوجها – وهو يعمل في خدمة الأمة – ولم يترك لها ما يكفيهـا وعياله ، وإن الشيخ الهرم الذي استنفد قواه لصالح هذا المجتمع ، ولم يستطع توفير ما يحفظ كرامتـه في الكبر ، إن هذه الطوائف – وأمثالها كثير في كل مجتمع – لا يتفق مع كرامة الإنسان ، ولا كرامة الأمة أن يتركوا هملاً بلا رعاية ، بل إنه لا يتحقق الأمـن عند العامل إذا رأى زميله – الذي أصابته محنـة فـي بعـض أعضائه ، أو أصابه الكبر والشيخوخة – مهملاً ضائعًا بلا كفالـة ولا ضمان من المجتمع .. من أجل هذين الهدفين :

١ – مراعاة الكرامة الإنسانية .

٢ – تحقيق وسائل الثقة والأمن عند الأفراد العاملين .

شرع الإسلام من وسائل التضامن الاجتماعي ما يهيئ للجميع حياة طيبة وكريمة ، بحيث لا يوجد في هـذا المجتمـع – الـذي يطبق هذه الوسائل – عاجز ولا فقير ولا محتاج .. ولقد حقق هذا الأمل الكبير سيدنا " عمر بن عبد العزيز " في مـدة لا تتجـاوز ثلاثين شهرًا ، هي كل المدة التي حكم فيهـا الدولـة الإسـلامية الواسعة ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغـرب .. فلقـد روى المؤرخون أن " يحيى بن سعيد " قال : " بعثني عمر بن عبد العزيز عاملاً على صدقات إفريقية ، فاقتضيتها وطلبت الفقراء لأعطيهـا إياهم ، فلم نجد بها فقيرًا ، ولم نجد من يأخذها ، لقد أغنى عمـر الناس ، فاشتريت بها عبيدًا وأعتقتهم وجعلت ولاءهم للمسلمين " .

ذلك أن الإسلام يوزع الثروات توزيعًا عادلاً يحقق كل هـذه الأهداف النبيلة .. لقد فرض نظام الزكاة وجعله ركنًا من أركـان الإسلام في معظم روافد الثـروة : فـي الـزروع ، والثمـار ، والتجارة ، والأنعام ، والذهب ، والفضة ، والركـاز .. وحـدد

مصارفها لمحتاجيها من الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والمكاتبين والغارمين وأبناء السبيل وفي سبيل الله .. وسلك مانعي هذه الزكاة وجاحديها مع الكافرين والمرتدين عن دين الله تعالى لدرجة جعلت " أبا بكر " رضي الله عنه يحاربهم ويقول : " لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه " .

وشرع مع الزكاة صدقة التطوع ورغّب فيها بإثارة مشاعر الرحمة والإنسانية في النفوس المؤمنة ، قال صلى الله عليه وسلم : « **مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** »[١] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « **وَاللَّهُ فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيهِ** »[١] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « **أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِى الْجَنَّةِ هَكَذَا** »[٢] وشبك بين أصابعه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « **لاَ تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلاَّ مِنْ شَقِىٍّ** »[٣] .

---

(١) أخرجه مسلم – كتاب الذكر والدعاء – باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر – حديث رقم ٧٠٢٨ .
(٢) أخرجه البخاري – كتاب الأدب – باب فضل من يعول يتيما – حديث رقم ٦٠٠٥ .
(٣) أخرجه أبو داود – كتاب الأدب – باب في الرحمة – حديث رقم ٤٩٤٢ .

وأوصى الإسلام بالجار ذي القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب .. قال صلى الله عليه وسلم : « **مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ** »[١] ، وقال صلى الله عليه وسلم : " **ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع** "[٢] .

وأوجب على الأغنياء نفقة أقاربهم العاجزين .. وعلى الولد نفقة الوالدين الفقيرين .. وعلى الزوج نفقة الزوجة والأطفال .. وعلى المجتمع أن يتضامن في القضاء على الجوع والفاقة والحرمان .. وعلى بيت المال أن ينفق على الزمن والشيخ الفاني ، والمريض ، والعاجز ، والمرأة التي لا عائل لها ولا مال عندها .

حق التكافل للمسلم ولغيره :

ولا فرق في تعاطف المجتمع الإسلامي بين مسلم وغير مسلم قال " ابن عباس " لغلامه – وهو يذبح شاة – : يا غلام لا تنس جارنا اليهودي – ثلاث مرات – فقال الرجل : لم تقول ذلك يا ابن

(١) أخرجه البخاري – كتاب الأدب – باب الوصاة بالجار – حديث رقم ٦٠١٥ .
(٢) أخرجه البخاري – الأدب المفرد ١/٥٢ .

عباس ؟ فقال : والله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِى بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ** » .. ورأى " عمر " شيخًا يتسول وهو يهودي فقرر له نفقة من بيت المال وقال : " ما أنصفناك إذ أخذنا منك الجزية ، وأنت شاب وتركناك تتسول وأنت شيخ " .

وكتب " خالد بن الوليد " في معاهدة الصلح مع أهل الحيرة المسيحيين : " وجعلت لهم أي شيخ ضَعُف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيًا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله ما أقاموا بدار الإسلام " .

هذه هي العدالة الإسلامية في أسمى معانيها .. وهذا هو الضمان الاجتماعي الحق .. فليقارن من أراد أن يقارن بين هذه القوانين ، وبين ما استحدث من قوانين ، ليجد السمو والعظمة يتبديان بوضوح كامل في تشريعات الإسلام .

حق الإعفاف

إذا بلغ الشاب مبلغ الرجال .. وبلغت الفتاة مبلغ النساء ، فمن حقهما على المجتمع أن يؤسسا أسرة ، وأن يسهما في خدمة الأمة وهما في بيت مستقر ترفرف عليه السعادة والهناء والاطمئنـان ، دون عقبات أو عراقيل .. قال تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[١] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ »[٢] .

والزواج في الإسلام له أهداف نبيلة تتجاوز حـدود المتعـة الجسمية إلى آفاق من السمو الروحي ، بالسكن والمودة والرحمة

---

(١) سورة النور – جزء من الآية ٣٢ .

(٢) أخرجه البخاري – كتاب النكاح – باب قـول النبـي صلى الله عليه وسلم : « مَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ » – حديث رقم ٥٠٦٥ .
وأخرجه مسلم – كتاب النكاح – باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسـه إليـه ووجد مؤنة – حديث رقم ٣٤٦٤ .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] .. وهو عماد الأسرة .. والأسرة عماد المجتمع .. وكلما كان الزواج قائمًا على أسس متينة كانت الأسرة أقوى وأسعد تفيض منها القوة والسعادة على المجتمع الذي هي لبنة من لبناته .

لذلك شرع الإسلام نُظُمًا محكمة تمنع الشطط في الاختيار .. وتمنع أن يكون الاختيار لأسباب سريعة الزوال ، منها : مراعاة الجانب المعنوي مع الجانب الحسي في الاختيار : من حسن الطبع والأخلاق والدين .. قال صلى الله عليه وسلم : « **تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ** »[2] .

ولكي يتوافر الاختيار الصحيح ، شرع الإسلام " الخطبة " وأباح للخاطب والمخطوبة أن يرى كل منهما الآخر في حضرة المحارم ، فإن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما

---

(١) سورة الروم – الآية ٢١ .
(٢) أخرجه البخاري – كتاب النكاح – باب الأكفاء في الدين – حديث رقم ٥٠٩٠ .

تناكر منها اختلف .. وحدد هذه الرؤية بما يظهر عادة من المرأة المسلمة ، ويدل في نفس الوقت على الحسن والجمـال .. وهـو الوجه والكفان .

عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ : خَطَبْتُ امْرَأَةً عَلَى عَهْدِ رَسُـولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : « **أَنَظَرْتَ إِلَيْهَا ؟** » . قُلْتُ : لاَ . قَالَ : « **فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا** »[١] .

وكما أعطى الإسلام هذا الحق للرجل أعطاه كذلك للمـرأة ، فهو حين يراها مكشوفة الوجه ستراه هي أيضًا .. ولقد أعطى لها الإسلام حق الاختيار ولكن في صورة من الحياء تتفق مع طبيعة الأنوثة التي يزيدها الحياء جمالاً وكمالاً ، بحيث يستأذنها وليها إن كانت بكرًا .. ويستأمرها إن كانت ثيبًا .. قال صلى الله عليه وسلم : « **لاَ تُنْكَحُ الأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ وَلاَ تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ** » . قَالُوا : يَـا رَسُولَ اللَّهِ ، وَكَيْفَ إِذْنُهَا ؟ قَالَ : « **أَنْ تَسْكُتَ** »[٢] .

---

(١) أخرجه النسائي – كتاب النكاح – باب إباحة النظـر قبل التزويج – حـديث رقم ٣٢٣٥ .

(٢) أخرجه البخاري – كتاب النكاح – باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا =

ثم بعد هذه المقدمات الهامة يأتي عقد الزواج الــذي يســميه الإسلام في القرآن الكريم بالميثاق الغليظ ، ويحرص الإسلام على حياطته برعاية خاصة ، فيؤكد على الرجل أن يستوصي بزوجته ، وأن يكون لها الراعي الأمين ، والشريك الحريص على إيفائهــا حق الزوجة ، في إطار الإخلاص والرحمة .. قال صلى الله عليه وسلم : « **اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ** »[1] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « **خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ** »[2]

ويؤكد على المرأة كذلك أن تراعي حقــوق زوجهــا ، وأن تكون في طاعته .. قال صلى الله عليه وسلم : « **إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ** »[3] ، وقــال صلى الله عليه وسلم : « **أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ**

= برضاها – حديث رقم ٥١٣٦ .
وأخرجه مسلم – كتاب النكاح – باب اســتئذان الثيب فــي النكاح بالنطـــق والبكر بالسكوت – حديث رقم ٣٥٣٨ .

(١) أخرجه البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب خلق آدم صلوات الله عليــه وذريته – حديث رقم ٣٣٣١ .
وأخرجه مسلم – كتاب الرضاع – باب الوصية بالنساء – حديث رقم ٣٧٢٠

(٢) أخرجه الترمذي – كتاب المناقب – باب فضل أزواج النبي – حديث رقم ٤٢٦٩ .

(٣) أخرجه أحمد – مسند عبد الرحمن بن عوف – حديث رقم ١٦٨٣ .

وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتِ الْجَنَّةَ »[١] .

معالجة الشقاق بين الزوجين

فإذا حدث شقاق بينهما طلب الإسلام إلى الزوج أن يتريث ويتأنى ولا يغضب .. قال تعالى : ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[٢] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقاً رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ »[٣] ، وبذلك يتغلب على الخلاف الطارئ الذي قد يهدد الأسرة بالانهيار ، فإذا حدث الشقاق من ناحيتها .. فللزوج أن ينصحها بالكلام اللين وبأسلوب الملاطفة ، فإن أصرت فله أن يهجرها في المضجع ، فإذا عاندت فله أن يضربها ضربًا خفيفًا غير مبرح .. فإذا لم يحدث وفاق بعد هذه الوسائل عقدت لجنة مصالحة مكونة من

---

(١) أخرجه الترمذي – كتاب الرضاع – باب ما جاء في حق الزوج على المرأة – حديث رقم ١١٩٤ .

(٢) سورة النساء – جزء من الآية ١٩ .

(٣) أخرجه مسلم – كتاب الرضاع – باب الوصية بالنساء – حديث رقم ٣٧٢١ .

مندوب عن الزوج من أهله ، ومندوب عن الزوجة من أهلها : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾[١] ، فإذا وجدا أن الشقاق قد اتسع ، وأن الرأب لن ينصدع ، وأن الحياة بينهما صارت جحيمًا لا يطاق ، فإن الإسلام يبيح في هذه الحالة الطلاق ، ولكنه حين يبيحه يضع له نظامًا خاصًا يكون به طلاقًا سنيًا حسنًا .. فينهى الإسلام الزوج أن يطلقها إلا في حالة طهر من الدورة الشهرية ، ولم يقربها في هذا الطهر .. في هذه الحالة الخاصة التي هي مدعاة لكمال الرغبة في المرأة .. إذا ظل الخلاف مستمرًا فإن الرجل لن يقدم على الطلاق حينئذ إلا وحبال الصلة قد انقطعت ولم يعد للحياة الزوجية معها سبيل .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَسَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة النساء – جزء من الآية ٣٥ .

« مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ، ثُمَّ تَطْهُرَ ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ ، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ »[١] .

وهو حين يقدم على الطلاق يطالبه الإسلام أن يوقع عليها طلقة واحدة رجعية .. ويطالبه كذلك بأن يبقيها في بيت الزوجية مدة العدة لا تخرج منه إلا أن تأتي بفاحشة مبيّنة ، وفي أثناء العدة وهي مدة كافية لندم المتسرع ، له حق مراجعتها بدون تعقيدات ولا معوقات : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾[٢] ، فإذا ما انتهت العدة صارت غريبة عنه ، ولكن الإسلام يبيح لهما أن يعودا إلى حياة الزوجية بعقد جديد .. وقد وسع الإسلام أمامهما الفرص فأعطاهما حق الطلاق والعودة مرتين ، قال تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الطلاق – باب قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ – حديث رقم ٥٢٥١ .

(٢) سورة البقرة – جزء من الآية ٢٢٨ .

بِإِحۡسَٰنٖ ﴾[١] ، كما ندب حين الطلاق أن يكون هنـاك شـاهدان حتى يبذلا جهدًا في منـع وقوعـه ، قال تعالى : ﴿ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾[٢] ، والإسلام لا يضع كل هـذه التشـريعات إلا ليحصر الطلاق في دائرة الضرورة ، حفاظًا على حق الأولاد في حماية الأسرة والتربية ، والحيلولة بين انهيـار الأسـر وتشـريد النشء الجديد .

حق المرأة في الإسلام

تختلف نظرة الإسلام إلى المرأة عن أي نظام سـبقه ، لـم يعتبرها سببًا لوقوع آدم عليه السلام في الخطيئة حتى تلعن كما فعل غيره ، ولكن إبليس قد وسوس لهما معًا .

ولم يعتبرها جنسًا أدنى من الرجل ، بل ردهما إلـى أصـل

---

(١) سورة البقرة – جزء من الآية ٢٢٩ .
(٢) سورة الطلاق – جزء من الآية ٢ .

واحد ، ومزج بينهما مزجًا لا يستطيع أحد فصله : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾(١) ، ووجه الخطاب إليهما معًا في التكاليف ، وحدثنا عن إمكان تفوق المرأة على الرجل في القيام بهذه التكاليف : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾(٢) .

فالمساواة قائمة بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانية المشتركة ، وأمام القانون ، والتكاليف ، وفي الحقوق العامة .. فلها حق التعليم ، وحق التملك والتصرف فيما تملك دون حجر عليها من الرجل ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾(٣) ، ولها حق اختيار الزوج كما سبق أن

---

(١) سورة النساء – جزء من الآية ١ .
(٢) سورة التحريم – جزء من الآية ١١ .
(٣) سورة البقرة – جزء من الآية ٢٢٩ .

أشرنا إلى ذلك ، ولها شخصيتها القانونية ، فالإسلام لا يسلبها حق انتسابها إلى أبيها حينما تتزوج وينسبها إلى زوجها كما تفعل بعض الدول .. والقرآن الكريم يعبر عن هذه المساواة القائمة بينهما في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ ﴾[1] .

قضية القوامة :

هذه الدرجة التي تحدثت عنها تلك الآية الكريمة تحتاج إلى مزيد من التفصيل والبيان حتى نأتي على نقد الناقدين وتشهير المحرفين .

هناك فعلاً تفرقة في بعض الأحكام بين الرجل والمرأة تبعًا لاختلاف وظيفة كل منهما في الحياة نتيجة لاختلاف الطبيعة المفطور عليها كل منهما .

فشهادة المرأتين برجل في بعض الأمور العامة التي لا

---

(١) سورة البقرة – جزء من الآية ٢٢٨ .

تتصل بمحيط النساء .. إذ أن اختلاط المرأة بالحياة العامة قليـــل لكثرة مشاغلها في البيت وتربية الأولاد .. كما أنها تنتابها الدورة الشهرية وأعراض الحمـــل والوضع .. وكل ذلك يـــؤثر عليهـــا ذهنيا فقد أثبت الطب الحـــديث أنها تشبه المريضــــة فـــي هـــذه الأحـــوال .. وهذا المرض المتكرر قد يؤثر على ذاكرتها فتنسى ما رأته ، وهذا المعنى هو الذي عبّر عنه القرآن الكريم في قوله : ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ ﴾[١] .

والقوامة في البيت للرجل لما طبعت عليه المرأة من عاطفـــة جياشة تؤهلها للحضانة والأمومة .. وهذه الطبيعة تجعلها سريعة الانفعال .. ولأن الرجل هو المكلف بالإنفاق عليها وعلى البيت .. وليس من العدالة في شيء أن يكلف أحد بالإنفاق على هيئة دون

(١) سورة البقرة – جزء من الآية ٢٨٢ .

إشراف عليها .. زد على ذلك أن المرأة بحكم طبيعتها وحيائها لا تتصل بالحياة العامة كثيرًا كما أسلفنا .. والإشراف على البيت يحتاج إلى دراية كاملة بكل ما يجري على أرض الواقع ، حتى تكيف الأسرة نفسها وتصرفاتها على ضوء خط السير للمجتمع ، إذ هي لبنة من لبناته .. ولقد صرح القرآن الكريم بسبب إعطائه الرجل حق القوامة ، فقال تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾[1]

التفرقة في الميراث :

والمرأة على النصف من الرجل في الميراث في بعض الحالات ، لأنها من مبدأ حياتها إلى نهايتها مكفولة لا كافلة .. حينما تكون فتاة لها حق النفقة على والدها حتى تتزوج ، وحينما تتزوج تكون زوجة لها حق المهر والنفقة على زوجها .. وحينما تكون فقيرة أرمل لها حق النفقة على أقربائها الموسرين .. فإن لم

---

(١) سورة النساء – جزء من الآية ٣٤ .

يكن لها أقرباء موسرون فعلى الدولـــة .. فكانـــت التفرقـــة فـــي الميراث تبعًا للتفرقة في الأعباء الاقتصادية .

حق الطلاق :

وحق الطلاق ثابت للرجل .. إذ هو الخاسر الذي ســيتحمل مغبته من تحمله لحقوق المرأة والأولاد بعد الطلاق .. كما أنهــا سريعة الانفعال كما أسلفنا .. هذا إذا وثقــت المــرأة فيــه أولاً ، وأسلمت له قيادها ، أما إذا ارتابت في حسن تصرفه أو تخلخلــت ثقتها فيه فلها أن تشترط عليه قبل الزواج أن تنوب عنه في طلاق نفسها متى شاءت كما رأي ذلك بعض الفقهاء .. كما أن لها حــق طلب الطلاق في حالات وقوع غبن عليها أو إساءة الرجــل فــي استعمال حقوقه ، ولها حينذاك أن ترفع أمرها للقضــاء وتطلــب الطلاق لإعساره بالنفقة ، أو لتقصيره في حق من حقوق الزوجية ، أو لاتقاء الضرر والضرار ، أو لغيبة الزوج غيبة طويلة .

كما أن لها أن تدفع المهر الذي أخذته وتطلب الخلــع منــه للكراهية .

المرأة ورياسة الدولة :

والمرأة لا يجوز لها أن تتولى رياسة الدولة وتوجيه دفة الحكم ، فلقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم حينما ولى الفرس عَلَيْهِمْ بِنْتَ كِسْرَى قَالَ : « **لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً** »[(١)] ، ذلك أن هذه المناصب الخطيرة تحتاج إلى وعي دائم وكامل لا يتوافر للمرأة في الحالات الخاصة بالنساء والتي أسلفنا بعضها .. وليس عندها استعداد فطري للقيام بهذه المهمة الخطيرة .

منع زواج المسلمة من غير المسلم :

والمرأة المسلمة لا يجوز لها أن تتزوج بيهودي أو نصراني .. والرجل المسلم له أن يتزوج بيهودية أو نصرانية .. ذلك أن للرجل حق القوامة على المرأة .. ولا يتأتى من الرجل المسلم أن يجرح مشاعر امرأته غير المسلمة ، إذ هو مطالب في الإسلام أن يحترم كل الرسالات السابقة ، وأن يؤمن بكل الأديان والأنبياء

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب المغازي – باب كتاب النبي إلى كسرى وقيصر – حديث رقم ٤٤٢٥ .

الذين بعثوا قبل الإسلام .. فإذا ما بدرت منه بادرة تخل بالاحترام الواجب لسيدنا " عيسى " عليه السلام أو لسيدنا " موسى " عليه السلام مثلاً ، فليس بمسلم .. أما اليهودي والمسيحي فإنهما لا يؤمنان بالإسلام ، ولا بنبي الإسلام ، وهما بهذا قد يطعنان ويجرحان دين زوجتهما المسلمة مما قد يؤدي إلى شقاق دائم وخلاف مستمر .

حق الحفاظ على كيان الأسرة

لحماية هذا الكيان شرع الإسلام واجبات وآدابًا يرعاها كل من الزوج والزوجة داخل البيت حتى يستمر حبل الصلة والمودة متينًا وقويًا ، وحتى لا تكون هناك أخطار ومشاكل داخلية .. وشرع واجبات وآدابًا أخرى يتكفل بإقامتها المجتمع ممثلاً في الدولة حتى يحميها من الأخطار الخارجية التي تهدد بقاءها .

فقد أمر الزوج بالعمل والتكسب ليحمي زوجته وأولاده من آلام الفاقة والحرمان .. وأوصاه بزوجته خيرًا ، وبغض إليه الفرقة .. وحمله من التبعات ما يجعله يتوقف كثيرًا قبل التجرؤ

على الطلاق .

وأمر الزوجة بالأمانة في بيت زوجها ، وحفظ ماله ، ورعاية أولاده .. ونهاها عن إدخال أحد بيت زوجها إلا بإذنه ، حتى لا يدخل بالفساد والإفساد ، وأمرها بالتحبب إلى زوجها وطاعته ، ولطف المعاشرة معه .

وأمرهما بتربية الأولاد وحسن تأديبهم ، قال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[1] ، وأباح للمرأة الفطر في رمضان إذا كانت مرضعًا حماية لها ولطفلها من الضعف والضرر .. وقد سبق مزيد من التفصيل والبيان لهذه الواجبات والآداب .

فإذا ما تمت على وجهها المشروع كان البناء الداخلي متماسكًا لا تنال منه الأعاصير الهوج .. وتفرغ أعضاؤها للعمل البنّاء ، وإفراغ كل الطاقات المثمرة في نهضة الأمة ورعاية الطفولة التي هي الثمرة المرجوة لمستقبلها .

---

(١) سورة التحريم – جزء من الآية ٦ .

وشرع لذلك أيضًا حدودًا يرعاها المجتمع تكفل لكـل أسـرة أمنها واستقرارها ، وتحميها من التصدع والانهيار .. وأي رجل وأي امرأة في المجتمع كلاهما مأمور بغض البصر ، والاعتصام بالحياء من التردي في عواقب النظرة الخائنة ، حتى لا يفتتن أحد بجمال أحد ، فتتقوض دعائم الأسرة ، فقال تعالى بالنسبة للرجال : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾[1]

وقال بشأن المـرأة : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾[2] .

وأمر كل النساء بالتزام الحشمة والوقار وألا يبدين زينـتهن للأجانب وألا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى .. حفاظًا عليهن مـن أطمـاع المسـتهينين بالفضـائل .. قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ

---

(١) سورة النور – جزء من الآية ٣٠ .
(٢) سورة النور – جزء من الآية ٣١ .

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1] ،

وجعل الإسلام للبيت حرمة خاصة لا يجوز انتهاكها ، وحد حدودًا للزنا والقذف وكل أنواع الانحراف السلوكي الذي يؤدي إلى هدم الأسر وانصراف الطاقات الشابة للتسكع والجري وراء الرذيلة والفساد .

إن الدولة بعد كل هذه التوجيهات الإسلامية الرائعة مكلفة بتوفير ضمانات الاستقرار للأسر وحماية الآداب العامة التي تعين على ذلك ، إذ لا يمكن تركها للأفراد وحدهم .

وإن ذلك لا يقل أهمية عن الدفاع ضد العدو الخارجي ، فإن العدو الداخلي ممثلاً في شيوع الرذيلة والفساد وانهيار الأخلاق لهو أنكى وأشد ضراوة في خلخلة الكيان للمجتمع الإسلامي بأسره .. قال الشاعر :

وَإِذا أُصيبَ القَومُ في أَخلاقِهِم .·. فَأَقِم عَلَيهِم مَأتَماً وَعَويلا

---

(١) سورة الأحزاب – الآية ٥٩ .

حق التعليم والثقافة

للتعليم في الإسلام منزلة فريدة من الاهتمام والعناية ، فهو لا يتصور أن هناك إنسانًا على وجه الأرض يُرجى منه خير وهو غير معلم أو متعلم : " كن عالمًا أو متعلمًا ، ولا تكن الثالث فتهلك " .

وإنه بأول جملة نزلت من دستوره الخالد تحددت معالم هـذا الدين ، إنهاتعتمد على التربية والتعليم : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[١] ، وأن آدم لم يفق الملائكة إلا بالعلم .

والمتعلم العامل بعلمه في نظر الإسلام ليس كالجاهل ولو كان عابـــــدًا قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٢] ، والعلم بتعبير القرآن الكريم يهدي صـــاحبه إلـــى

---

(١) سورة العلق – الآيات ١ – ٥ .
(٢) سورة الزمر – جزء من الآية ٩ .

الحق : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾[١] ، والعلم العميق سبيل الخشـية مـن الله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[٢] ، وطلبه ليس للمسلم والمسلمة فيه اختيار ، إنه فرض لازم وواجب محتم .. قال صلى الله عليه وسلم : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ »[٣] .

والتعليم للصغار حق إلزامي على الكبار ، وعلى الدولة بنص هذا الحديث الكريم ، وبذلك التطبيق السليم من سـيد المرسـلين صلى الله عليه وسلم .. لقد قبل في فداء بعض أسرى بدر أن يعلم الواحد منهم عشرة من أطفال المسلمين القراءة والكتابة ، بل إن رسـول الله صلى الله عليه وسلم ليلزم المجتمع بالتضامن في إزالة الأمية ومحـو الجهل ، ويضع على عنق المتعلم مسئولية التعليم للجاهل .. وعلى

---

(١) سورة سبأ – جزء من الآية ٦ .
(٢) سورة فاطر – جزء من الآية ٢٨ .
(٣) أخرجه ابن ماجه – المقدمة – باب فضل العلماء والحث على طلب العلـم – حديث رقم ٢٢٤ .

عنق الجاهـل مسئولية التعلم من المثقف .. بل جعله حقًّا مـن حقوق الجوار .

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأثنى على طوائـف من المسلمين خيرًا ثم قال : " **ما بال أقوام لا يفقهون جيـرانهم ولا يعلمونهم ؟! وما بال أقوام لا يتعلمـون مـن جيـرانهم ولا يتفقهون ؟! والله ليعلمن قوم جيرانهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة** " .. ثم نزل ، فقال قـوم : مـن ترونه عني بهؤلاء ؟ .. ثم عرف أنه قصد بـذلك الأشـعريين ، فإنهم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة جهلاء ، فبلغ ذلك الأشعريين ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، ذكرت قومًا بخير ، وذكرتنا بشر ، فما بالنا ؟ فقال : " **ليعلمن قوم جيـرانهم وليتعلمن قوم من جيرانهم أو لأعاجلنهم العقوبة في الـدنيا** " ، فقالوا : يا رسول الله ، أنفطن غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم ،.فطلبوا منه سنة يمهلهم فيها حتى يطبقوا هذا التوجيه الكريم .

الحث على تعلم العلوم الكونية :

والإسلام لا يقصر واجب التعليم على العلوم الشرعية والدينية ، بل إنه يدعو إلى تعلم كل ثقافة فيها خير وصلاح للمجتمع .. ذلك أنه يتخذ من العلم وسيلة لكشف أسرار الكون ونواميسه ومجاهيله ، وكلما اكتشف العلم مجهولاً بهر العقل من دقة الصانع البديع ، ولا أدل على ذلك من إشارة القرآن الكريم إلى تحصيل علم الطبيعة والنبات والحيوان وطبقات الأرض .. ثم يعقب على هذه الإشارة بأن العلماء هم الذين يخشون الله .. قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[1] ولكنه مع ذلك يقرر أن الاقتصار على العلم

---

(١) سورة فاطر – الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

الدنيوي البحث وقوف عند ظاهر الأشياء وسبيل إلى انهيار الحضارات واستخدام الآلات في الحرب والتخريب .. قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1] .

وعند التأمل في هذه الأدلة يتبيّن أن الإسلام هو أصل إيجاب التعليم على الدولة للأطفال في سنيهم الأولى بلا مقابل .. فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يعبّر عن طلب العلم بأنه فريضة ، وعلى الدولة أن تقيم فريضة الله تعالى .. ولم يطالب الرسول صلى الله عليه وسلم آباء الأطفال الذين تعلموا من أسرى بدر عوضًا .

أما التعليم الفني والمهني فإنه فضلاً عن حتمية اختلاف المواهب والاستعدادات الفطرية عند الأطفال ، فإن القرآن الكريم

---

(١) سورة غافر – الآيتان ٨٢ ، ٨٣ .

يعرض علينا نماذج تتجلى فيها روعة الفن والصناعة الدقيقة ، فداود عليه السلام كان صانعًا لأدوات الدفاع : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾[1] .

و" سليمان " عليه السلام كان يصهر المعادن : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[2] ، والجن حوله يعملون له بمشيئته وبإذن ربه في صناعة المحاريب والقدور والجفان : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[3] .

---

(١) سورة سبأ – جزء من الآيتان ١٠ ، ١١ .
(٢) سورة سبأ – الآية ١٢ .
(٣) سورة سبأ – الآية ١٣ .

ويمتن الله تعالى على البشر بما في البحر من ثروات مائيـــة ومعدنية ، ويثير لديهم شعور الانتفاع بها على أوســـع مـــدى .. وبالثروة النباتية مشيرًا إلى بهاء المنتجات الزراعية وجمالهـــا .. وبالثروة المعدنية في جوف الأرض .. ويشير إلى عمليـــة بنـــاء السدود المحكمة في قصة ذي القرنين .

والقرآن الكريم مملوء بهذه المظاهر الحضارية التي تـــدعو إلى الإبداع والإتقان في مختلف الحرف والفنون .. ولقـــد شـــجّع الحكم الإسلامي في تاريخه الطويل على ذلـــك حتـــى صـــارت الحضارة الإسلامية منبعًا ثريًا استقى منه الغرب علومه ومعارفه وحضارته التي يعيشها الآن .

أما الحرص على التعليم الجامعي العالي وتقدير المتعلمـــين ، فإن وصايا الإسلام بمواصلة التعليم حتى آخر رمق في الحياة .. ورفع منزلة العلماء إلى درجات تكاد تقرب من الأنبياء ؛ لتعنـــي أن يتعلم المرء من المهد إلى اللحد .. قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي

عِلْمًا ﴾[1] ، وقـــال صلى الله عليه وسلم : « **إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ** »[2] .

ولقد جعل الإسلام التخصص والتعمق في مختلــف العلــوم فرض كفاية على المجتمع يقوم به من لديه نبوغ كاف للتبريز في هذه المجالات .

أما مناهج التربية الإسلامية التي تقوم على تهــذيب الــروح وإيقاظ الحافظة والحث على التفكير والتأمل ، وتقويــة اللســان ، وبعث كل ما طوي في العقل والقلب من ينابيع صالحة ، وتلقــين مبادئ الدين والخلق .. هذه المناهج كفيلــة بتنميــة الشخصــية الإنسانية وتعويدها احترام الحريات الأساسية والحقوق الإنسانية ، وإرادة الخير والازدهار لكل شعوب الأرض التي يجمعها أصــل واحد ونسب واحد ، وغني عن البيان أن الإسلام يطالب الآبــاء

---

(١) سورة طه – جزء من الآية ١١٤ .

(٢) أخرجه الترمذي – كتاب العلم – باب ما جاء في فضل الفقه على العبــادة – حديث رقم ٢٨٩٨ .

بتوجيه الأبناء وتربيتهم واختيار ما يصلح لمواهبهم أن تبرز فيه ، قال صلى الله عليه وسلم : « وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »[١]

وأما نوع الثقافة التي تسري في شرايين المجتمع ، ويباح في جو الإسلام تناولها ، والإسهام في تنميتها ، والتمتع بآثارها ، والاستفادة من نتائجها .. فهي كل ثقافة لا تتعارض مع مبادئ الإسلام ، ولا تهدم فضيلة من فضائله ، ولا تدعو إلى مذاهب هدامة ، أو عقائد فاسدة ، أو فلسفات منحرفة .. ذلك أن الجانب النظري من الثقافة محكوم بتراثنا الإلهي الخالد الذي وفر علينا الجهود البشرية المضنية التي بذلتها الأمم التي لا تؤمن بالإسلام ، ولم تصل إلى نتيجة مرضية توائم بين العقل والقلب ، وتسلك طبائع الإنسان ونوازع الفطرة ودوافع الغريزة في ثوب من التوازن والاتساق كما أسداه إليها هذا الدين العظيم .

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الأحكام – باب قول الله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ – حديث رقم ٧١٣٨ .

واجبات بإزاء الحقوق

إذا كان كثير من الناس يعيش مستنفدًا جهده وطاقاتـــه فـــي المطالبة بالحقوق ولا يقنع بما يحصل منها مهمـــا أخـــذ ، فـــإن الحقوق ليست غايات يسعى الإنسان إليها لذاتها ، وإنما هي وسائل فحسب ، تمكن الإنسان من أداء واجباته في الحيـــاة ، وإذا كـــان بعض الناس يمضي في تلك الحياة كما تمضي البهائم والأنعـــام ، لا تدري الحياة بوجوده ولا بموته .. فإن قيمة الإنسان الحقيقيـــة فيما يتركه من آثار ، وما يجدده في مظاهر تلك الحيـــاة ، وفـــي إسهامه في خدمة المجتمع وتقدمه دينيًا وخلقيًا وعلميًا وماديًـــا .. ولولا هذا ما امتاز الإنسان على سائر المخلوقات ، ولكان وجوده عبثًا في الحيـــاة .. قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾[1] .

---

(١) سورة المؤمنون – الآيتان ١١٥ ، ١١٦ .

إن حق الحياة ما منح للإنسان إلا ليستغله في النافع من القول والمفيد من العمل ، وليتخذ منها مطية لآخرته يلقى ربه بما قدم أبيض الوجه ، ناصع الصحيفة ، قوي الحجة ، آمنًا في وقت الفزع ، مكرمًا في وقت الحساب .

وما أعطي حق الحرية إلا لتنفسح أمامه كل المجالات ليستخدم فيها كل الطاقات ، بلا حواجز ولا قيود إلا بمقدار ما يحافظ على حريات الآخرين وحقوق رب العالمين .

وما أعطي حق المساواة إلا ليتمكن من العمل في جو من تكافؤ الفرص والحفاظ على الكرامة الإنسانية ، فيبذل كل ما في وسعه لتنتفع الحياة بمواهبه وقواه .. وكذلك حق العدالة والكرامة الإعفاف والتعليم .. كل حق ما هو إلا وسيلة لأداء واجب ، فلا ينبغي أن تحول الوسائل دون الوصول إلى الغايات والأهداف .

إن على الإنسان واجبًا نحو نفسه ، وواجبًا نحو ربه ، وواجبًا نحو أسرته ، ونحو مجتمعه ، ونحو دنياه وآخرته .. مما هو مفصل في تعاليم الإسلام .

وإن الشعور بهذه الواجبات هو مشكلة الإنسان في هذا العصر .. إن الإنسان في مختلف الشعوب والأمم إذا شعر بهذه الواجبات .. ذلّل ما أمامه من عقبات ، وانطلق يرسي دعائم الحقوق المهضومة ، ويركز أسس الحقوق القائمة ، ويزيل هياكل الظلم والاستعباد .. ويطهر الأرض ممن يدوسون بأقدامهم على حقوق الإنسان وعلى كرامة الإنسان .

وعلى العرب خاصة تقع مسئولية هذا البيان من منطلق أن الله تعالى قد شرفهم بنزول الوحي الخاتم بلغتهم .. قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[1] .

---

(١) سورة النحل - جزء من الآية ٨٩ .



وهكذا تستبين الحقيقة الساطعة التي تثبت بما لا يدع مجـــالاً للشك أن الإسلام قد منح الإنسان أقصى ما يمكن أن يمـــنح مـــن حقوق ، وأعانه بشتى الوســـائل والـــنظم علـــى أداء التكـــاليف والواجبات التي تزدهر بها الحياة ، ويعمر بها الكون .

وإننا لنرجو من الضمير الحر للبشرية أن يفتح عينه على هذه الحقوق المهدرة على ثرى فلســطين ، والعــراق ، والشيشـــان ، وكشمير ، والصومال ، والسودان .. وعلى هذا التشرد البـــائس للاجئين .. وعلى هذه الوحشية الكالحة والعدوان الســـافر علـــى المقدسات والحريات من شراذمة الصهيونية وذيولهـــا .. لـــيحس بواجبه إزاء تلك الأوضاع التي تهدد وجود التعـــاون الـــدولي .. وتتحدى ببشاعة وصفاقة إعلان حقوق الإنسان .

على العالم أن يتذكر أنه في نفس العام الذي شهد هذا الإعلان قد ولدت فيه عصابة نازية تمثل السرطان والجرثومة التي تنخـــر

في مبادئ هذه الحقوق .. ومازالت على طول هذه المدة تمـــارس مخططاتها العدوانية الآثمة .. وما لم تتضافر القوى الخيّرة فـــي هذا العالم على القضاء على هذا الخطر ، فإن هذا الإعلان سيظل حبرًا على ورق ، وأملاً للإنسانية لم يتحقق .. وصدق الله العظيم حين بيّن طبيعة هؤلاء في قوله : ﴿ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾[١] .

وإننا لنضرع إلى المولى القدير أن يوفق البشرية إلى التفيـــؤ بظلال الإسلام ، حتى تسير قُدُمًا إلى الأمام نحو الحضارة الرشيدة والمدنية الزاهرة ، والتقدم المنشود .

---

(١) سورة المائدة – جزء من الآية ٦٤ .

الفهرس

